جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

النقد الأدبي في مؤلفات الجاحظ

إعداد الطالب
عمر حسن أبوغليون

إشراف
الأستاذ الدكتور جهاد المجالي

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليـــــا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجـــــة
الماجستير في الأدب قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2008

بسم الله الرحمن الرحيم

MUTAH UNIVERSITY
Deanship of Graduate Studies

جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم (14)

قرار إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالب عمر حسن ابو غليون الموسومة بـــ:

النقد الأدبي في مؤلفات الجاحظ

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في **اللغة العربية**.

القسم: اللغة العربية.

	التوقيع	التاريخ	
أ.د. جهاد شاهر المجالي		2008/07/24	مشرفاً ورئيسا
أ.د. أنور عليان أبو سويلم		2008/07/24	عضواً
أ.د. سمير محمود الدروبي		2008/07/24	عضواً
د. عبد الرحمن محمد الهويدي		2008/07/24	عضواً

عميد الدراسات العليا

أ.د. حسام الدين المبيضين

MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail: dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo
http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

مؤته – الكرك – الاردن
الرمز البريدي :61710
تلفون :03/2372380-99
فرعي 5328-5330
فاكس 03/2 375694
البريد الالكتروني
الصفحة الالكترونية

الإهداء

إلى من غرس فيَّ حب العلم والمعرفة منذ الطفولة

إلى أبي الحبيب

إلى من بمحبتها وعطفها وصلواتها ... كانت مصدر قوتي

إلى أحب الناس على قلبي ... إلى من أحب إليَّ من نفسي

إليك يا أمي

إلى من شجعني وساندني لأواصل مسيرتي، وأحقق ما أصبو إليه، إلى رفاق دربي وشموع حياتي إلى إخوتي وأخواتي وأصدقائي .

عمر حسن أبوغليون

الشكر والتقدير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

وبعد ...

فإنه لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل، والتحية والتقدير وعظيم العرفان إلى أستاذي الفاضل الدكتور جهاد المجالي، الذي تكرم بالإشراف على هذه الرسالة، وأعطاني من علمه ووقته وجهده الكثير، فكان خير معين لي في تخطي الصعاب التي واجهتني خلال هذه الدراسة، أمدّ الله في عمره، وجزاه الله عني خير الجزاء، كما أتقدم بالشكر والتقدير لأساتذتي أعضاء لجنة المناقشة على عنايتهم واهتمامهم بهذا البحث فجزاهم الله خيرا وبارك هممهم وجهودهم، ولهم كل التقدير والاحترام. كما أتقدم بالشكر والتقدير إلى رفاق دربي فهد أبو الربع، وحسن سليمان، وعاطف حسين أبوغليون.

والله ولي التوفيق

عمر أبوغليون

فهرس المحتويات

المُلخص

النقد الأدبي في مؤلفات الجاحظ

عمر حسن أبوغليون

جامعة مؤتة 2008

هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على جانب من جوانب النقد الأدبي الذي اضطلع به الأديب الفذّ أبو عثمان عمرو بن بحر المُلقب بالجاحظ، وذلك من خلال التعرف على الآراء النقدية التي أوردها لنا في ثنايا مؤلفاته الخصبة، حيث حَوَتْ الرسالة أربعة فصول: جاء الفصل الأول لبحث الآراء الانطباعية في مؤلفات الجاحظ، ومدى تأثر النقد الأدبي بهذه الآراء الانطباعية، التي ساهمت في ترسيخ مبادئ هذا النقد الأدبي، ثم جاء الفصل الثاني ليتناول مجموعة من الآراء النفسية التي اهتم بها النقد العربي منذ زمن بعيد، وإن لم يُشر إليها صراحة، إلا أننا نجد إرهاصات تُشير إلى اهتمام واسع بهذه الجوانب، كما شاهدنا في صحيفة بشر بن المعتمر.

ثم جاء الفصل الثالث ليكشف عن منهج الجاحظ في النقد الأدبي من خلال تعريفه للبلاغة، وطريقة عرضه للشعر ونقده، بعد أن أورد آراء مجموعة من جهابذة النقد العربي القديم. وفي إشارة سريعة توقفنا عند ظاهرة التكرار التي ظهرت جلية في مواطن عديدة من كتابات الجاحظ.

ثم جاء الفصل الرابع والأخير ليتتبع مجموعة من القضايا النقدية التي أوردها الجاحظ ومنها قضية اللفظ والمعنى والتي أثارت إشكالية كبيرة لدى كثير من النقاد الذين تعرضوا لها بالدراسة والتدقيق، وبعد ذلك تعرضنا لقضية السرقات الشعرية التي اهتم الدارسون بها بعد أن أصبحت ظاهرة متفشية في أدبنا، ثم تحدثنا عن المطبوع والمصنوع من الشعر ومدى التفاضل بينها، وفي الختام توقفنا عند قضية الصدق والكذب وأثرهما في جودة الشعر.

Abstract

Literary Criticism in the works of Al-Jahez

Omar Hassan Abu Ghalion
Mu'tah University 2008

This study aims at exploring one aspect of literary criticism with which the outstanding writer, Abu Othman A'mir Bin Bahr (Al-Jahez), was concerned. Such aim has been achieved through throwing light on the critical views included in his rich works. This thesis consists of four chapters: the first chapter depicts the impressionistic views in Al-Jahez's works which in turn pave the way for the principles of such literary criticism. The second chapter sheds light on a few psychological views which were emphasised by the classical Arab criticism. Though such views were implicit, we can conclude some indications which reveal an obvoius concern of these aspects as seen in Bishr Bin Al-Mo'tamir's pamphlet.

The third chapter investigates Al-Jahez's method of literary criticism through his own conception of Rhetoric and his representation of poetry and its criticism based on a few views of outstanding writers of classical Arab criticism. The phenemenon of repetition of Al-Jahez's works has been briefly emphasised.

The fourth chapter traces a few critical issues debated by Al-Jahez which include form and meaning. Many critics who investigate this issue regard it as a very problematic one. Furthermore, this study expounds on plagiarism of poetry. Since this issue becomes widespread in Arab literature , critics get more concerned with it.

Emphasis will be also placed on the issue of originality and banality in poetry and the distinction between them. Finally, honesty and dishonesty and their impact on the quality of poetry will be also emphasised.

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد، صلى الله عليه وسلم، وبعد، فإن هذه دراسة تناولت جانبا من جوانب النقد الأدبي عند الجاحظ بعنوان "النقد الأدبي في مؤلفات الجاحظ " .

فالجاحظ صاحب المدرسة الجاحظية، يُعد من أعلام الفكر العربي، ورائدا من رواد النقد العربي، شقّ طريقا وعرا في مجال النقد الأدبي منذ مطلع القرن الثالث الهجري وحتى عصرنا الحاضر .

ولعل أبرز ما دفعني لدراسة هذه الشخصية الفذّة هو ما تمتع به الجاحظ من فكر موسوعي، لا يرتبط بحدود معينة ولا يقف عند قيود محدودة ،إذ إنه واسع الثقافة يُطّوف بالقارئ في ثقافات متعددة عربية وغير عربية ،ناقلا ومقارنا بين أدبنا وآداب تلك الأمم الأخرى.

ولكنني لا أزعم أن الطريق لدراسة الجاحظ ونقده ،كان معبدا بل على العكس من ذلك ،فالجاحظ الذي عُرِف باستطراده ،ينتقل من موضوع لموضوع في كثير من الأوقات دون أن يشعر القارئ بذلك مما جعل جمع واستقصاء هذه الموضوعات أمرا صعبا، يتخبط الدارس نتيجة لذلك في أدبه دون أن يصل إلى ما يُريده ،لذلك كان لابدّ من الجلد والصبر في دراسة هذه المتفرقات للوقوف على ما أراده الدارس من هذه الدراسة ،وفي هذا الصدد استذكر مقولة أستاذي الدكتور أنور أبو سويلم عندما أخذت رأيه في هذه الدراسة فقال لي: إن هذه الدراسة ستأخذ منك الوقت الكثير حتى تقف عند جزئيات هذا الموضوع.

والجاحظ الذي عُرف بنقده لم يكن بِدعا في نقده، فقد تتلمذ الجاحظ على أيدي أساتذة الفكر الاعتزالي، وأخذ عنهم عناصر النقد الأولي ،مما دفع الجاحظ صاحب المعرفة الواسعة لأن ينقل لنا كما كبير من الآراء النقدية لعلماء كان لهم الدور الكبير في ترسيخ مبادئ هذا الفن الأدبي، وذلك من خلال ما دونه الجاحظ في مؤلفاته الخصبة.

ومما دفعني لدراسة هذه الشخصية الناقدة، ما تميز به الجاحظ من فكر عميق، وثقافة موسوعية، وأسلوب شائق، وشخصية فذة في عالم الفكر والنقد والأدب، إذ كان عالما من علماء المعتزلة، التي أعملت العقل في كثير من المسائل الدينية، فقد كان طريقها في شق الصعاب مبنيا على الدليل والمناظرة والمحاورة، لذلك كان للعقل دور أساسي في توجيه الناقد إلى كثير من المسائل النقدية.

وهذه الدراسة ليست أول دراسة تتناول الجاحظ ونقده، فقد عكف كثير من الدارسين على دراسة الجاحظ قديما وحديثا وقد اختلفت الآراء حول كثير من القضايا الأدبية واللغوية والفكرية والنقدية التي طرحها الجاحظ في مؤلفاته الكثيرة، فمنهم من تطرق لدراسة الجاحظ كناقد، ومنهم من تحدث بشكل مقتضب عن بعض الآراء والأصول التي جاء الجاحظ بها، لذلك كانت هذه الدراسة، والتي تعرضت لدراسة الآراء النقدية التي أوردها الجاحظ في ثنايا مؤلفاته لكثير من النقاد العرب منذ فترة طويلة معتمدا في ذلك على ثقافته الواسعة، وما جمعه لنا في ذاكرة فذة رسمت طريقا سائدا في تلك العصور المتعاقبة.

وقد بُنيت هذه الدراسة على أربعة فصول توقفنا في الفصل الأول عند الآراء الانطباعية في مؤلفات الجاحظ، وبينا معنى الانطباعية في اللغة والاصطلاح، ثم تعرضنا لطبيعة العلاقة بين النقد الأدبي والآراء الانطباعية، إذ إن النقد الأدبي بدأ بالآراء الانطباعية التي تصدر عن البديهة والفطرة التي جُبِلَ عليها الإنسان، لذلك كانت هذه الآراء عامة غير معللة في كثير من الأوقات، ثم توقفنا عند مجموعة من قضايا النقد الانطباعي التي أوردها الجاحظ في مؤلفاته، حيث عكست هذه الآراء بداية النقد العربي وكيف تطور شيئا فشيئا.

وتحدث الفصل الثاني عن الآراء النفسية في مؤلفات الجاحظ، حيث تناولت فيه اتصال النقد الأدبي بالدراسات النفسية، وطريقة اهتمام النقاد العرب بهذه الجوانب النفسية، لا سيما صحيفة بشر بن المعتمر التي كان لها دور مهم في الوقوف على كثير من القضايا النفسية مثل التهيؤ النفسي عند المبدع، والعناية باختيار وقت عملية الإبداع،

والاستعدادات الفطرية عند المبدع، والطاقة الشعورية عنده أيضا. ثم بينت الدور المهم الذي اضطلعت به صحيفة بشر بن المعتمر في أدبنا العربي، ولا سيما تأثر نقادنا العرب بما جاء في هذه الصحيفة من قضايا نقدية.

وبعد ذلك جاء الفصل الثالث متحدثا عن منهج النقد الأدبي عند الجاحظ، حيث توقف الباحث فيه على طريقة الجاحظ في تعريف البلاغة، إذ تناول الجاحظ هذه التعريفات من مصادر متعددة، منها العربي وغير العربي. وبعد ذلك تحدثنا عن منهج الجاحظ في نقد الشعر الذي ساقهُ لنا في مواطن مختلفة من كتاباته، إذ لم يكتف الجاحظ بنقل ما وجه لهذا الشعر من النقد فحسب، بل على العكس من ذلك فالجاحظ يتدخل في كثير من الأوقات مضيفا ومعللا ومفسرا لِما ينقله لنا من الأخبار معتمدا في ذلك على حِسه النقدي، وسعة اطلاعه، ثم تحدثنا عن سمة التكرار التي وظفها الجاحظ في مواطن عديدة في مؤلفاته. لإثبات ما أراده من تفرد في الرواية، وخوفا من السرقات التي تلاحقه.

أما الفصل الرابع والأخير فتناولت فيه قضايا من النقد الأدبي التي حظيت باهتمام الجاحظ، ومنها قضية اللفظ والمعنى إذ يُعد الجاحظ من أوائل من أثار النقاش في هذه القضية عندما قال بطرح المعاني في الطريق، ثم تحدثنا عن السرقات الشعرية التي شاعت منذ زمن بعيد في أدبنا العربي، لذلك توقف الجاحظ عند هذه الظاهرة، ورصد أمثلة حية لها، وبين موقف كثير من الأدباء في هذه القضية، ثم تحدثنا عن الطبع والصنعة في الشعر والمفاضلة بينهما عند الأدباء والشعراء، وبعد ذلك توقفنا عند قضية الصدق والكذب، ومدى اهتمام النقاد بهما كمقياسين لجودة الشعر، وأثرهما في جودة الشعر أيضا.

وقد اعتمدت في دراستي هذه على مجموعة من المصادر والمراجع، وقد كان المعين الأول والأخير لي من بين هذه المصادر ما وصل إلينا من كتابات الجاحظ ذاته، ولعل أبرز ما توقفت عليه ونهلتُ منه كثيرا:

1- كتاب " البيان والتبيين " والذي يقع في أربعة أجـزاء، بتحقيـق عبـد الـسلام هارون، فقد كان من المصادر المهمة في استقراء القضايا النقديـة واللغويـة، ومُعينا مهماً في دراستي هذه بالرغم من تجني بعض الدارسين عليه بالقول عنه إنه كتاب لم يتعدّ حدود الجمع والرواية، لهذه القضايا النقدية المتناثرة فيه.

2- كتاب " الحيوان " ويقع في ثمانية أجزاء، بتحقيق عبد السلام هـارون، وهـو كتاب علمي أدبي غاية في الأهمية، إذ يصور سعة اطـلاع الجـاحظ، وفكـره الموسوعي، الذي تناول عالم الحيوان بشكل أدبي فذّ.

3- " رسائل الجاحظ " ويقع في أربعة أجزاء، بتحقيق عبد السلام هارون، وهي رسائل متنوعة، في موضوعات مختلفة، صورت لنا في بعض الأوقات جانبا من جوانب النقد الأدبي.

4- كتاب " البخلاء " بتحقيق : طه الحاجري، وهو كتاب مهم يعكس في كثير مـن الأوقات جوانب متعددة من النقد الاجتماعي، و يؤكد في بعض الأوقـات وفـي إشارة سريعة على جوانب من النقد الأدبي.

التمهيد

أبو عثمان، عمرو بن بحر الكِنَانيُّ، المُكنّى بأبي عثمان، كان ثمة نتوء واضح في حدقَتيه فلقب بالحَدَقِيُّ، ولكن اللقب الذي التصق به أكثر و به طارت شهرته في الآفاق هو الجاحظ، وقد بذل من المساعي أعزّها وأجلها كيما يمحو هذا اللقب الذي كان ينفر منه، ولكنه عبثا كان يحاول ذلك . وقد اختلف النقاد والمؤرخون في تاريخ ولادته، فمنهم من يقول إنها كانت سنة 155هـ، وجعلها بعضهم سنة 159هـ، ولعل ما نقله ياقوت الحموي مؤشر إلى ما يُضيء الطريق بقول قاطع للجاحظ نفسه فقد روي أنه قال: " أنا أسن من أبي نواس بسنة، وُلدتُ في أول سنة خمسين ومائة، و وُلد في أخرها " وعلى العموم فمولده مابين عامي 150هـ/ 160هـ .

أما وفاته فقد كانت بإجماع المؤرخين في البصرة سنة 255 هـ، وعلى الرغم من ذهاب بعضهم إلى أنه من الموالي، أعجمي الأصل أو متحدِّر من الزنج فهو في الأغلب كما يرى بعضهم * عربي صرف من بني كنانة، وكنانة عربية الأصل، ترجع إلى مُضر، ومن ذلك لقب الجاحظ أيضا بالكناني، فانتماؤه إلى العربية واضح، وولاؤه أشد وضوحا، لذلك حارب الشعوبية ودافع عن العربية(1).

أما ثقافته فقد كان الجاحظ موسوعي المعرفة يُشكل دائرة معارف بحد ذاته، فقد قال فيه أبو هِفَّانَ: " لم أرَ قطُّ ولا سمعتُ مَنْ أحَبَّ الكُتُبَ والعلومَ أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتابٌ قطُّ إلا استوفى قراءَتَهُ كائنا ما كانَ، حتى أنَّهُ كان يكتري دكاكين الورَّاقين ويبيتُ فيها للنَّظر"(2).

---

*- انظر السندوبي، حسن:أدب الجاحظ المطبعة الرحمانية، ط1، القاهرة، 1931،ص10

1- انظر الحموي، ياقوت: معجم الأدباء، تحقيق عمر فاروق الطباع، مؤسسة المعارف، ط1، المجلد 6، بيروت، 1999، ص 52-66. وابن النديم: كتاب الفهرست، تحقيق رضا تجدّد، طهران، 1997، 208.

2- الحموي: معجم الأدباء، ص 58.

وعلى الرغم من شهرة الجاحظ بالأدب والنثر خصوصا إلا أن كتب الأدب وقصص الجاحظ تُظهر جانبا خفيا من جوانب شخصية الجاحظ ألا وهو الجانب الشعري الذي اضطلع به الجاحظ متميزا بذلك على غيره من الأدباء ،إذ تسجل كتب التاريخ أشعارا قالها الجاحظ في مناسبات مختلفة .

ومما يُروى في فضل الجاحظ والثناء عليه قول أبي سعيد السَّيرافيُّ حين قال: "حدثنا جماعة من الصابئين الكُتاب، أن ثابت بن قرَّة قال: ما أحسدُ هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس فإنه

عَقِمَ النِّسَاءُ فلا يَلِدنَ شبيهَهُ   إنَّ النِّساءَ بمثلهِ عُقمُ

فقيل له أحص لنا هؤلاء الثلاثةَ، فقال: أولهم عمر بن الخطاب في... والثاني الحسن بن أبي الحسن في ... أما الثالث فهو أبو عثمان الجاحظ، خطيب المسلمين، وَشيخُ المُتكلمين، وَمدرَهُ المُتَقدِّمينَ، والمُتَأخرينَ، إن تَكلم حكى سَحبَانَ في البلاغة، وإن ناظر ضارع النَّظَّام في الجِدَالِ، وإن جَدَّ خرجَ في مِسكِ عَامر بن عبد قيس، وإن هَزَلَ زاد على مَزيدِ حَبيبِ القُلوبِ وَمزَاجِ الأرواحِ، وَشيخِ الادب ولسان العرب كُتبهُ رياضٌ زاهرةٌ، ورسائلُهُ أفنانٌ مثمرةٌ، ما نازعَهُ مُنازعٌ إلا رَشاهُ آنفاً، ولا تَعرَّضَ لهُ منقوص إلا قَدَم لهُ التواضُعَ استبقَاءً . الخلفاءُ تعرفه، والأمراءُ تُصافيهِ وتنادِمُهُ، والعلماءُ تَأخُذُ عنه، والخاصةُ تُسلِّمُ لهُ، والعامةُ تُحبُّهُ، جمع بين اللسان والقلم، وبين الفِطنَةِ والعلم، وبين الرأيِ والأدبِ، وبين النّثرِ والنَّظمِ، وبين الذَّكاءِ والفهمِ، طال عُمرهُ، وفَشت حكمتهُ، وظهرت خَلَتُهُ ووَطِئَ الرّجَالُ عَقِبَهُ، وتهادَوا أدبهُ وافتخروا بالانتساب إليه، ونجحوا بالاقتداءِ به، لقد أوُتيَ الحكمةَ وفصلَ الخِطَابِ (1).

1- الحموي: معجم الأدباء، ص 70.

ومما قاله أبو الفضل بن العميد: " ثلاثةُ عُلوم الناس كُلُّهم عِيالٌ فيها على ثلاثةِ أنفُس: أما الفقه فعلى أبي حنيفةَ، لأنهُ دونَ وخَلَّد ما جَعلَ مَن يتكلّمُ فيه بعدهُ مُشيرا إليه ومُخبرا عنهُ، وأما الكلامُ فعلى أبي الهذيل، وأما البلاغةُ والفَصَاحَةُ واللَّسَنُ والعَارِضَة، فعلى أبي عثمان الجاحظ "(1).

فما قِيل في فضل الجاحظ وسعة ثقافته وأهمية كتبه شيء كثير لا يُحصى ، ومما يُروى أنهم قالوا في متعة قرأءة كتب الجاحظ " رضينا في الجنة بكتب الجاحظ عوضا عن نعيمها "(2).

وعلى أن شهرة الجاحظ ذاعت وانتشرت، وقِيل في فضله والثناء عليه الشيء الكثير إلا أن أصحاب المآرب لم يفهموا مقاصد العلماء فعابوا على الجاحظ وأخذوا يقولون فيه الأقاويل ومنهم ابن قتيبة الذي قال فيه :

" ثم نصير إلى الجاحظ، وهو آخر المتكلمين، والمعاير على المتقدمين، وأحسنهم للحجة استثارة، وأشدهم تلطفا، لتعظيم الصغير، حتى يَعظُم، وتصغير العظيم حتى يَصغُر، ويبلغُ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه، ويحتج لفضل السودان على البيضان، وتجده يحتج، مرة للعثمانية على الرافضة، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة، ومرة يفضل عليا رضي الله عنه، ومرة يؤخره، ويقول :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويُتبِعه قال الجماز، وقال بن غزوان: كذا وكذا من الفواحش ويعمل كتابا، يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين، فإذا صار إلى الرد عليهم، تجوز في الحجة، كأنه إنما أراد تنبيههم على مالا يعرفون، وتشكيك الصنعة من المسلمين، وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث، يريد بذلك، استمالة الأحداث، وشُرّاب النبيذ، ويستهزئ من الحديث، استهزاءً، لا يخفى على أهل العلم " (3)

1- الحموي: معجم الأدباء، ص74.

2- مردم، خليل: أئمة الأدب الجاحظ، مكتبة عرفة، دمشق، 1930، ص34.

3- ابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم: تأويل مختلف الحديث،ضبط محمد زهري النجار،دار الجيل، بيروت، 1973، ص 59 .

ولم يقف الحد عند ابن قتيبة فحسب فهذا هو الباقلاني يأخذ في ثلم الجاحظ والتعريض به فيقول: " وكذلك قد يزعم الزاعمون، أن كلام الجاحظ من السمت الذي لا يُؤخذ فيه، والباب الذي لا يذهب عنه، وأنت تجد قوما يرون كلامه قريبا ومنهاجه معيبا ونطاق قوله ضيقا، حتى يستعين بكلام غيره، ويفرغ إلى ما يوشح به كلامه من بيت سائر، ومثل نادر، وحكمة ممهدة منقولة، وقصة عجيبة مأثورة، وأما كلامه في أثناء ذلك فسطور قليلة وألفاظ يسيرة فإذا أُحوِج إلى تطويل الكلام خاليا عن شئ يستعين به فيخلطه بقوله من قول غيره كان كلامه ككلام غيره،فإن أردت أن تحقق هذا فانظر في كتبه في نظم القرآن ، وفي الرد على النصارى ،و في خبر الواحد وغير ذلك مما يجري هذا المجرى هل تجد في ذلك كله ورقة تشتمل على نظم بديع، أو كلام مليح على أن متأخري الكتاب قد نازعوه في طريقته وجاذبوه على منهجه فمنهم من ساواه حين ساماه، ومنهم من أبر عليه إذ باراه"(1).

وفي قول الباقلاني هذا ظلم كبير وقياس باطل، فالباقلاني حين حكم على الجاحظ اعتمد على كتابين من كتب الجاحظ دون غيرهما، وفي هذا دليل على الاستقراء المنقوص .

وفي قول الباقلاني هذا شهادة للجاحظ لا عليه حين قال بان طريقة الجاحظ أصبحت نموذجا يُحتذى من الكتاب والأدباء، وفي هذا دليل على صحة وجودة طريقة الجاحظ في ذلك الزمان .

وقد نُقِل عن أبي العباس "ثعلب" أنه قال في حق الجاحظ : " ليس ثقة، ولا مأمونا، وكان من أئمة البدع."(2).

1- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب: إعجاز القرآن، مطبعة الإسلام، ط1، مصر،1897م، ص 115.

2- ابن حجر،شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني: لسان الميزان ، تحقيق محمد المرعشلي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1995، ص 355.

وقال فيه بديع الزمان الهمذاني في إحدى مقاماته: "إن الجاحظ في أحد شِقَّيِ البلاغة يَقطفُ وفي الآخر يقفُ، والبليغ من لم يقصر نظمُهُ عن نثرِه، ولم يُزرِ كلامَه بشعرِه، فهل ترون للجاحظ شعرا رائعا ؟ قلنا لا. قال: فهلموا إلى كلامه، فهو بعيد الإشارات، قريب العبارات، مُنقاد لعُريانِ الكلام يستعمله، نُفُورٌ مِن مُتاصِبِه يُهمِلهُ،فهل سمعتم له لفظة غير مصنوعةً أو كلمةً غير مسموعةٍ قلنا لا(1)

أما قول الهمذاني بقصور شعره فهذا ما لم يكن فقد رويت له الأشعار كغيره من الأدباء إلا أن نجمه سطع في النثر أكثر من النظم ، كما هو الحال لدى ابن المقفع.

أما الرد على هذه المزاعم والمطاعن فقد كفانا الباحث حسن السندوبي مشقة هذا العناء، فقد فصل القول، ووضع النقاط على الحروف و أزال الغموض ، الذي توهمه أصحاب هذا الفكر المغلوط ولعل أبرز القضايا التي كان فيه الرد هو ما اشار اليه السندوبي بأن ابن قتيبة كان مدفوعا بحقده على المعتزلة إلى أن يذهب هذا المذهب من الحقد والتعصب للرأي والحقد على الخصم،ويقول السندوبي أيضا:" وأما ما تنقص به ابن قتيبة أبا عثمان الجاحظ من أنه كان يعمل الشيء ونقيضه، فلا أدري كيف غاب عنه أن هذا من قوة البيان، وفضل الافتنان، وكيف فاته أن ذلك من معجزات البلاغة التي اختص الله الجاحظ بها، وألقى إليه بأزمتها ؟ وهل في الوجود شيء خالص من الشوائب، أو برئ من المعايب؟ أم هل هناك خير محض أو شر بحت ؟ الحق أنه لا يوجد في هذا العالم ما ليس فيه وجه للمدح وآخر للقدح، وقد أعطي الجاحظ اكبر قسط من فضل اللَّسَن حتى إنه ما كان يروم وصف شئ كائنا ما كان إلا جلاه عليك في صورة يعجز غيره من فحول البلاغة وأعيان البيان عن عرضه في مثلها .

1- الهمذاني، أبو الفضل بديع الزمان: المقامات، شرح محمد عبدة، المطبعة الكاثوليكية، ط5، 1965، ص75.

أما عبارة الباقلاني كما ترى لا تدل على أنه لا يرى الجاحظ شيئا، وإنما هو بسبيل المقارنة بين كلام الله عز وجل وكلام المخلوقين، وأي كلام يرتفع على كلام الله سبحانه وتعالى (1).

كتبه ومؤلفاته :

فهي كتب كثيرة يقول المسعودي في الجاحظ :" ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبا منه "(2) .

أما تعدادها فقد يصل إلى أكثر من ثلاثمائة وستين مؤلفا ، إلا أن يد الزمان عبثت بها فلم تبق منها إلا الشيء اليسير، ولعل أهم المرجع التي رصدت لنا آثار الجاحظ بشكل مفصل ما قام به الباحث محمد الدروبي حين قسم هذه الآثار إلى ثلاث مجموعات هي(3) :

1- الآثار الكاملة.
2- الآثار المبتورة.
3- الآثار المنسوبة.

1- السندوبي، حسن: أدب الجاحظ، ص51، يذكر السندوبي هذه الردود بشكل مفصل .
2- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي(346هـ/957م): مروج الذهب ومعادن الجواهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، الجزء4، 1991م، ص 195.
3- الدروبي، محمد: آثار الجاحظ دراسة توثيقية إشراف عبد الجليل عبد المهدي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1994 .

الفصل الأول
الانطباعية في مؤلفات الجاحظ

1.1 الانطباعية لغة :

الطَبعُ والطَبِيعةُ السَجِيةُ التي جُبِلَ عليها الإنسان، والطَّبعُ ابْداءَ صنعة الـشيء، تقول : طبعتُ اللَّبنَ طَبعاً وطَبعَ الدرهم والسيف وغيرهما يطَبعُه طَبعا: صاغه (1).

أما الذَوقُ فهو من ذَاقَ ذَوقا والمَذاقُ طَعمُ الشيء،وهو حسنُ الذَوقِ للشعرإذا كـان مَطبوعا (2).

والطبع في المفهوم الاصطلاحي للنقد الأدبي يلتقي فـي كثيـر مـن خصائـصه ومقوماته بالمعنى اللغوي الذي يقصد به الجِبلَّة التي خلق عليها الإنسان وبهذا المعنـى فهو نقيض الصنعة والتكلف في الأدب، لأن الشعر المطبوع في عرف النقـاد العـرب القدامى هو ما أتى عفوا وصدر عن الشاعر دون تكلف أو تصنع، وقد اسـتعمل هـذه المادة بمفهومها الاصطلاحي مجموعة من النقاد منهم: ابن قتيبـة والجـاحظ وثعلـب والأصمعي و الصولي وابن طبا طبا (3).

2.1 علاقة الذوق بالنقد :

يستمد الذوق والنقد عند ذوي العقول السليمة بعضهما من بعض، ويساعد أحـدهما الآخر، ويعمل كل منهما على حفظ أثره في نفس القارئ ، بحيث لا يضل بينهما ، ولا يكون خاضعا خضوعا تاما لأحدهما ، فيبطل أثر الأخر، بل يتذوق ما يعجبه مما هـو في نفسه ولا يمنعه ذلك من الإعجاب بما هو مخالف لطبيعته (4).

1- ابن منظور: لسان العرب، مادة طَبَعَ .

2- المصدر نفسه، مادة ذَوقُ .

3- الناقوري، إدريس: المصطلح النقدي في نقد الشعر دراسة لغوية ، تاريخية نقدية ، الدار البيضاء، ص 224، 1982.انظر: ابن قتيبة، الشعر و الشعراء، تحقيق أحمد محمد شكري، دار الثقافة، بيروت ، 1964 : ج1 ص9، 10، 16، 34، 144.والجاحظ، البيان والتبيين ج1 ص50، 138.والجاحظ، الحيوان ج4، 380.

4- ضيف، أحمد: مقدمة لدراسة بلاغة العرب، ط1، مطبعة السفور، القاهرة، 1921 ، ص 92.

فقد كان النقد الأدبي عند العرب منذ نشأته عبارة عن ملاحظـات علـى الـشعر والشعراء قوامها الذوق الطبيعي الساذج، وقد مكن له تنافس الشعراء، واجتماعهم فـي الأسواق وأبواب الملوك والرؤساء، وهذه العصبية للقبيلة والشاعر، ومكانـة الـشاعر وكلامه بين البادين، فكان ذلك كله سببا لتجويد الشعر مـن ناحية وتَعقُيـبِ الـشعراء بالتجريح والتقريظ مـن جهة ثانية وكـان النـقد يتناول اللفـظ والمعنـى الجزئـي المـفرد، ويعتـمد على الانفعال والتأثر دون أن تكون هنالك قواعد مدونة يرجع إليها النقاد في الشرح والتعليل وينتهي إلى بيان قيمة الشعر ومكانة الشاعر بين أصحابه (1).

وفي علاقة الذوق أو الطبع بالنقد الأدبي يشير جهاد المجالي إلى هذه العلاقـة، وذلك من خلال استعراض وبيان لمواقف عديدة للنقاد العرب القدامى أمثال: ابن سـلام الجمحي، والآمدي، والقاضي الجرجاني، والمرزوقي، وعبد القاهر الجرجـاني، وابـن الأثير، وابن خلدون فيقول: " ومن حديث النقاد العرب عن أهمية ملكة الذوق ودورهـا في النقد يتبين لنا أنهم كانوا يعنون مستوى عاما من الذوق ، وهو المستوى الذي تَتَحلقُ حوله الأذواق المهذبة المعتدلة، فتلتقي عنده أكثر مما تتفرق . ولقد أدركوا أن مثل هذا المستوى هو الأساس البديل للأحكام العامة القاطعة التي تتنافى مع طبيعة النقد الأدبـي وروحه، والتي تتحول بالنقد من فن جميل عماده الذوق والإحساس إلى علم ذي قواعـد جامدة وقوانين جائرة؛ لأنه إن كان لا بد من القواعد فيجب أن تكـون ضـمن إطـار عريض مرن يتصل بالعام لا الخاص وبما يحتمل أن تلتقي حوله الأذواق أكثـر ممـا تختلف. ولعل في الالتفاف إلى آراء شيوخ النقد والأدب في نقدهم للـشعر و الـشعراء يظهر أن ما اتفقوا عليه أكثر مما اختلفوا فيه " (2).

1- الشايب، أحمد: أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة السعادة ،ط6 ، 1960 ، ص 109 .

2- المجالي، جهاد: موقف النقاد العرب القدامى من قضية الذوق الفني، مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد الثاني، العدد الثاني،1993، ص 173-178.

وفي الحديث عن الآراء الانطباعية نجد هذه الإشارة الجميلة في ثنايا مؤلفات الجاحظ حيث يقول: "إذا كانت الكلمة حَسنةً استمتعنا بها على قدر ما بها من الحُسن، فإن أردتَ أن تتكلف هذه الصناعة، وتُنسَب إلى هذا الأدب، فقرضتَ قصيدةً، أو حبَّرت خطبة، أو ألفّيتَ رسالة، فإيَّاك أن تدعوك ثقتُك بنفسك، أو يدعُوك عُجبك بثمرة عقلك إلى أن تنتحلَه وتدَّعيَه؛ ولكن اعرضه على العلماء في عُرْضِ رسائلَ أو أشعارٍ أو خطب؛ فان رأيتَ الأسماعَ تُصغِي له، والعيونَ تَحْدِج إليه، ورأيتَ مَن يطلبُه ويستحسنه، فانتحله فإن كان ذلك في ابتداء أمرك، وفي أول تكلُّفك فلم تر له طَالبا ولا مستحسنا، فلعلّه أن يكون ما دام ريِّضا قضيبا (1) أن يحلَّ عندهم محلَّ المتروك، فإذا عاودت أمثال ذلك مرارا فَوجَدتَ الأسماع عنه منصرفة، والقلوب لاهية، فخُذ في غير هذه الصناعة ، واجعل رائدك الذي لا يكْذِبُك حِرصَهم عليه، أو زُهدَهم فيه "(2).

3.1 قضايا من النقد الانطباعي:

يشير الجاحظ إلى تميز تميم في الخطب ويورد هذا الخبر عن النبي عليه السلام عندما سأل عمرَو بنَ الأهتمِ عن الزِّبرِقان بن بدر قال: "مانعٌ لحَوْزتِه، مطاعٌ في أدْنَيه(3)". فقال الزّبرِقان: "أما إنَّه قد علِمَ أكثر ممَّا قال،ولكنه حسَدني شرفي" فقال عمرو:" أمَا لئنْ قال ما قال فوالله ما علمتُه إلا ضيِّق الصدر زَمِرَ المروءة لئيمَ الخال، حديث الغِنَى"(4)

---

1 – ابن منظور: لسان العرب، مادة رَوَضَ والرَّيِضُ :الذي ابتدئ في رياضته.مادة قَضَبَ والقَضِيبُ: الذي لم يمهر في الرياضة .

2 – الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون،بيروت، دار الفكر، ط 2، ج 1 ، 1948 ، ص 203 .

3 – القيرواني،أبو إسحاق: زهر الآداب وثمرة الألباب، ،ط3،ج1، المكتبة العصرية،بيروت، صيدا 2001 ،تحقيق صلاح الدين الهواري ص27(مطاع في عشيرته) .

4 – ابن منظور: لسان العرب مادة زَمِر والزَمِرُ:القليل الشعر ،ورجل زَمِرٌ : قليل المروءة.

فلما رأى أنه خالف قولُه الآخِر قولَه الأوّل،ورأى الإنكار في عَينَي رسول الله قــال: يا رسول الله، رضيتُ فقلتُ أحسنَ ما علمت، وغضبتُ فقلتُ أقبَحَ ماعلمتُ؛ وما كَذبتُ في الأولى ولقد صَدقتُ في الآخِرة(1)"فقال رســول الله عنــد ذلــك:"إن مــن البيــان لسِحرا"(2)

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل أحسَنَ في طلب حاجة وتأتى لها بكلام وجيــز، ومنطق حسن: " هذا والله، السِّحرُ الحلال". وقال رســول الله ﷺ "لا خلابــة"(3) أي لا خداع.

يعلق الجاحظ على ذلك قائلا :فالقصد في ذلك أن تجتنب الــسوقيّ والوحــشي، ولا تجعلَ همَّك في تهذيب الألفاظ وشغلكِ في التخلص إلى غرائب المعاني.وفي الاقتــصاد بلاغ، وفي التوسط مجانبةٌ للوعورة ، وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه(4) وفــي هذا يقول الشاعر:

عليــك بــأوســاطِ الأمــور فإنّــها نــجاة ولا تــركب ذَلــُولاً ولا صَعبــا (5).

فالجاحظ هنا يدعو إلى عدم المبالغة والإسراف في التعقيد بل على العكس من ذلك فهو يدعو إلى الوسطية والاعتدال من خلال هذا القول.

ومن الأحكام الانطباعية التي صدرت عن رسول الله ﷺ للذي قال:" يا رسول الله، أرأيتَ من لا شَرِبَ ولا أكل، ولا صاح واستهلّ أليس مثلُ ذلك يُطَل*.

1- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص 53.

2- البخاري، أبو عبد الله محمد إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الطب :باب الشرك والسحر من الموبقات ، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض، 1998، ص 1129 .

3- البخاري، الصحيح، كتاب البيوع، باب ما يكره من الخداع ، ص 399 .

4- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص255.

5- لم أجد له نسبة.

6- ابن منظور: لسان لعرب، مادة طَلَلَ ويُطَلُ : أي يهدر دمه .

فقال رسول الله ﷺ : "أسجع كسجع الجاهلية"(1).

قال عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي :" لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا الإقامة لهذا الوزن ، لما كان عليه بأسٌ ، ولكنه عسى أن يكون أراد إبطالَ حقٍ فتشادَقَ في الكلام". وهذا ما نهى عنه رسول الله عليه السلام، لا عامة البيان كما يزعم بعضهم(2).

لأن في ذلك قدرة على تغير الحقائق بالكلام المنمق والمزخرف،فقد قال مالك بن دينار(3) :" "ما رأيتُ أحداً أبينَ من الحجّاج"، إن كان لَيَرقى المِنبرَ فيذكرُ إحسانَه إلى أهل العراق، وصفحَه عنهم، وإساءتهم إليه، حتّى أقول في نفسي: إنِّي لأحسبه صادقا، وإني لأظنهم ظالمين له" (4).

---

(1)– مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري: الصحيح، كتاب القسامة ، باب دية الجنين ووجوب الدية في قتل الخطأ ، بشرح الإمام النووي، الناشر مؤسسة مناهل العرفان، بيروت ،ج10، ص 178، نص الحديث في صحيح مسلم أن امرأة ضربت ضَرَّتَهَا بعمود فُسطاط وهي حُبلى فقتلتها،فجعل رسول الله ﷺ دِيَةَ المقتُولة على عَصَبَةِ القاتلَة وغُرَّةً لما في بطنها فقال رجلٌ من عَصَبَةِ القاتلة : أنغرمُ دية من لا أكلَ ولا شربَ ولا استهلَّ فمثل ذلك يُطلُّ فقال رسول الله ﷺ: "أسجع كسجع الأعراب".أما حديث"أسجع كسجع الجاهلية" فقد ورد في المعجم الكبير،للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، حققه وخرج أحاديثه :حمدي عبد المجيد السلفي،ط2،ج17، 1983،ص 142

2 – الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص287.

3– هو: أبو يحيى مالك بن دينار، كان مولى لامرأة من بني سامة بن لؤى، وكان من كبار الزهاد الوعاظ توفي سنة130 انظر: أبي حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب:، باعتناء:إبراهيم الزيق، عادل مرشد ،ط1، ج4، مؤسسة الرسالة،بيروت، 1996، ص11.

4–الجاحظ: البيان والتبيين ج2، ص 268 .

ولِمَ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنابغة الجعدي:" لا يَفضضُ اللهُ فاك"(1) ؟ ولِمَ قال لهيذان بن شيخ: " رُبَّ خطيبٍ من عَبس"(2) ؟ ولِمَ قال لحسان: " هَيِّج الغطاريف على بني عبد مناف والله لشعرُك أشدُّ عليهم من وَقعِ السِّهام، في غبش الظّلام "(3) ".

هذه الآراء التي صدرت عن أفصح العرب قاطبة تدلل على تذوقه عليه السلام للشعر، والحكم عليه، وعدم النهي عن البيان، لذلك يقول الجاحظ :

" ما نشكُّ أنَّه عليه السلام قد نَهى عن المِراء، وعن التزيد والتكلّف وعن كل ما ضارَعَ الرِّياء والسُّمعة، والنُّفج والبَذخ، وعن التهاتر والتَّشاغُب، وعن المماتنة والمغالبة "(4). فأمَّا نفسُ البيان ، فكيف ينهي عنه. وأبين الكلام كلام الله وهو الذي مدح التبيين وأهل التفصيل وفي هذا كفاية إن شاء الله (5).

1- يُروى أن العباس بن عبد المطلب جاء إلى النبي عليه السلام فقال: إنّي أريد أن أمدحك فقال له النبيﷺ : "هات لا يفضض الله فاك ". فأنشأ العباس شعرا في ذلك . انظر:الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد، مطبعة الزهراء، الرياض، 1994، ج 4، ص 213.

2- يُروى أن مناسبة هذا الحديث هو ما قاله ربيعة بن رواء العنسي بين يدي رسول الله عندما أسلم، فقال رسول الله: " ربَّ خطيب من عنس " انظر الطبراني: المعجم الكبير، ج5، ص66.

3- نص الحديث " اهجوا قريشا، فإنّه أشد عليها من رَشقٍ بالنَّبلِ" انظر: صحيح مسلم ، ج15، ص 226.

4- ابن منظور: لسان العرب مادة مَتن، و نَفج وبذخ والنَفجُ والبَدخ هما بمعنى الكبر.والمماتنة هي:المباعدة في الغاية.

5- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص 273.

وكذلك الحال في نقد أصحاب رسول الله عليه السلام فلم يكن الأمر مختلفا عما كانت عليه الملاحظات الانطباعية السابقة فقد مرَّ رجل بأبي بكر – رضي الله عنه – ومعه ثوبٌ، فقال أبو بكر :" أتبيع الثوب " ؟ فقال:" لا عافاك الله". فقال أبو بكر رضي الله عنه:" لقد علمتم لو كنتم تعلمون. قل: لا، وعافاك الله". (1) .

فأبو بكر يركز على المعنى الذي أفاده الدعاء.وكذلك كان نقد عمر بن الخطاب رضي الله عنه نقدا عميقا يركز على القضايا الدينية والشعرية أيضا.

فقد قال محمد بن سلام الجمحي: كان عمر بن الخطاب- رحمه الله- إذا رأى رجلا يتلجلج في كلامه، قال:"خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد" (2).

إشارة إلى إعجابه ببيانه واختلاف درجات البيان عند الناس .

وكان الرمق بن زيد(شاعرا جاهليا) فمدح أبا جبيلة الغساني،(أحد ملوك الغساسنة)، وكان الرمق دميما قصيرا، فلما أنشده وحاوره، قال:" عسل طيب في ظرف سوء " .

قال: وكلم علباء بن الهيثم السدوسي عمر بن الخطاب وكان علباء أعور دميما، فلما رأى براعته وسمع بيانه،أقبل عمر يصعد فيه بصره ويحدره فلماخرج قال عمر(3):"لكل أناس في جُمَيلِهم خُبْرٌ"(4)

وقال العائشي(5):" كان عمر بن الخطاب- رحمه الله- أعلم الناس بالشِّعر، ولكنه

1- الجاحظ: البيان والتبيين ج1 ، ص 39 .

2- المصدر نفسه : ج1 ، ص 261 .

3- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص 238 .

4-ابن منظور: لسان العرب، مادة خبر والخبر بضم الخاء وكسرها : العلم بالشئ ، الجُميل: تصغير الجمل .

5- هو عبيد الله بن محمد بن حفص بن عمر بن موسى التيمى يقال له ابن عائشة والعائشي نسبة إلى عائشة بنت طلحة ؛ لأنه من ذريتها، انظر تهذيب التهذيب، ج3، ص8 .

كان إذا أبتلي بالحكم بين النجاشي والعجلاني(1) ، وبين الحطيئة والزِّبرِقان، كـره أن يتعرض للشُّعراءِ، واستشهد للفريقَينِ رجالا، مثل حسان بن ثابت وغيره، ممن تهون عليه سبِالُهم، فإذا سمع كلامَهم حكَم بما يعلم، وكان الذي ظهر من حكم ذلك الـشاعر مُقنِعا للفريقين، ويكون هو قد تخلَّص بعِرضِه سليما.فلمَّا رآه مَن لا عِلم له يسأل هـذا وهذا، ظن أن ذلك لجهله بما يعرف غيرُه"(2) .

ولقد أنشدوه شعرا لزهير ــ وكان لشعره مقدَّما ــ فلما انتهوا إلى قوله:

فـإنّ الحــقَّ مَقْطَعُــه ثــلاثٌ ... يَــمِينٌ أو نِفَــارٌ أو جِــلاءُ (3)

قال عمر كالمتَعجِّب من علمه بالحقوق و تفصيله بينها، وإقامته أقسامها:فردد البيت متعجبا:

إن الحــق مقــطعــه ثـــلاث ... يــميــن أو نفــار أو جـــلاء

وأنشدوه قصيدة عَبدَةَ بن الطّبيب (4)

الطويلةَ التي على اللام، فلما بلغ المنشد إلى قوله :

والمرء ساعٍ لشيء لــيس يــدركهُ ... والعــيش شُــحٌ وإشفاقٌ وتأميلُ

1- العجلاني: هو تميم بن أبي بن مقبل بن عوف بن حنيف ابن قتيبة بن العجلاني.أدرك الإسلام فأسلم،انظر:ابن حجر العسقلاني ، الإصابة في تمييز الصحابة ، اعتنى به :حسان عبد المنان بيت الأفكار الدوليةص1319 .

2- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص239 .

3- زهير بن أبي سلمى: الديوان، شرح أبي العباس احمد بن يحيى الشيباني ثعلب، المكتبة العربية،دار الكتب المصرية، 1944، 75.

4- يذكر الجبوري، يحيى في بداية الشطر الأول كلمة(ويعجِّب والمرء ساع لأمر ليس يدركه). شعر عبدة بن الطبيب دار التربية للطباعة، 1971 ، ص 11، عبدة، بسكون الباء وهو عبدة ابن الطبيب – واسمه الطبيب يزيد – ابن عمرو بن وعلة ابن انس شاعر مخضرم أدرك الإسلام فأسلم.

قال عمر متعجبا: والعيش شح وإشفاق وتأميل(1).

وأنشدوه قصيدة أبي قيس بن الأسلت التي على العين، وهو ساكت، فلما انتهى المنشد إلى قوله:

الكَيـــــسُ والقـــَوةُ خـيـرُ من الإشـفـاقِ و الفـهّــه و الهــاعِ

وجعل عمر يردد البيت ويتعجب منه.

وفي شاعرية عمر بن الخطاب- رحمه الله- وذوقه الرفيع يقول محمد بن سلام : عن بعض أشياخه قال:"كان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لا يكاد يعرض له أمرٌ إلا أنشد فيه بيتَ شِعر"(2).

يقول الجاحظ: حدثنا علي بن مجاهد، عن هشام بن عروة(3)، قال: سمع عمر بن الخطاب -رحمه الله- رجلا ينشد:

متى تأتِهِ تعشو إلى ضوءِ نارِهِ تجـد خيرَ نــارٍ عنــدها خَيرُ مُوقِـدِ (4)

فقال عمر:" ذاك رسول الله ﷺ" .

وقد كان الناس يستحسنون قول الأعشى:

تُـشَبُّ لِمَقرورَينِ يصطلـيانِها وباتَ على النــار النـدى والمُحلِّـقُ (5)

---

1 – الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص 240 .

2 – المصدر نفسه:ج1، ص 241 .

3 – الرازي العبدي: (أبو مجاهد علي بن مجاهد بن مسلم بن رفيع الكابلي) تهذيب التهذيب ج3 ،ص190 .وهشام هو أبو المنذر هشام بن عروة بن الزبير بن العوام الاسدي ولد هو والأعمش سنة مقتل الحسين 61، وتوفي سنة 146 ابن حجر تهذيب التهذيب ج4، ص275.

4 – الحطيئة: الديوان، شرح. ابن السكيت، والسكري، والسجستاني، تحقيق نعمان أمين طه، ط1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1958، ص161.

5– الأعشى: الديوان، شرح يوسف شكري فرحات، ط1 ، دار الجيل ، بيروت، 1992 ،ص 184.

"فلما قال الحطيئة البيت الذي كتبناهُ قبل هذا سقط بيت الأعشى. وقال أبو الحسن: أجرَى رسولُ الله ﷺ الخيل وسَبّق بينها فجاء فرسٌ له ادهَمُ سابقا، فجثا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال:"ما هو إلا بَحرٌ" فقال عمر بن الخطاب: كذَب الحُطيئةُ حين يقول:

وإنَّ جـيادَ الخـيـل لا تستفزُّنـــا ولا جاعلاتُ العـاج فـوقَ المعاصِـم(1)

وقد زعم ناسٌ من العلماء أنه لم يستفزّه سبق فرسِه، ولكنه أراد إظهار حُبِّ الخيل وتعظيم شأنها"(2)

وأنشد رجل عمر بن الخطاب – رحمه الله– ، قول طرفة:

فلـولا ثلاثٌ هُـنَّ من عِيشة الفتَى وجـدِّك لم أحفـل متى قام عُوَّدِي(3)

فقال عمر: " لولا أن أسيرَ في سبيل الله، وأضَعَ جبهتي لله ، وأُجالِسَ أقواما ينتقون أطايب الحديث كما ينتقون أطايب التمرِ، لم أبالِ أن أكُونَ قد مِتُ"(4).

ولما أقدم عمرُ بن الخطاب عمرو بن العاص عليه من مصر قال له عمر:"لقد سِرت سَيْرَ عاشق" قال عمرو: "إنِّي والله ما تأبَّطتني الإماء، ولا حَمَلَتني البغايا في غُبَّرات المآلي(5) ".قال له عمر: "والله ما هذا بجواب الكلام الذي سألتُك عنه إن الدّجاجة لتفَحصُ في الرماد فتضعُ لغير الفَحلِ والبيضة منسوبةُ إلى طَرقِها" (6).

1- الحطيئة: الديوان، ص396 .والبيت في الديوان:

وإنَّ جـيادَ الخـيل لا تستفـزنا ولا جاعـلات الـرَّيطِ فـوقَ المعاصـم

2- الجاحظ: البيان والتبيين ج2، ص 29 .

3- طرفة بن العبد: الديوان: شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق دريد الخطيب ،ولطفي الصقال، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1975 ، ص 32 .

4- الجاحظ: البيان والتبيين ج2 ، ص 195 .

5- المآلي: جمع مئلاة ، وهي خرقة الحائض . والغُبُر : بقية دَم الحيض ، لسان العرب عَبَرَ.

6- ابن منظور: لسان العرب، طرق والطَّرقُ: في الأصل ماء الفحل والبيضة منسوبة إلى طرقها أي إلى فحلها.

وقام عمر فدخل عمرو فقال: "لقد أفحشَ أمير المؤمنين علينا"(1).

وقال أبو عبيدة في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين رأى فلانا يخطب فقال: " هذا الخطيب الشّحشَح " قال:" هو الماهر الماضي".قال: وكان أسد بن كرز(2) يقال له " خطيب الشيطان" فلما استعمل خالد ابنه على العراق قيل له"خطيب الله" فجرت إلى اليوم (3).

وفي تذوق دلالة المعاني قال الشاعر(4)- ورأى رجلا اسمه وثاب واسم كلبه عمرو- فقال:

ولـو هَيَّـا لـه اللـه مـن التّـوفيـق أسبـابـا
لسمَّى نفسَـه عَمـرا وسمـّى الكلـبَ وثّـابـا(5)

وقال عبد الرحمن بن حسان الأنصاري، وهو صغير:

اللهُ يعلَـمُ أنّي كُنت مُشتَغِـلاً في دَارِ حَسَّانَ أصـطـادُ اليَعَاسِـيب (6)

وقال لأبيه وهو صبيٌّ، ورجع إليه وهو يبكي ويقول:لسعني طائر! قال: فصفه لي يا بني! قال:" كأنه ثوبُ حَبَرَة "(7)!

1- الجاحظ: البيان والتبيين ج2، ص 283 .

2- هو أسد بن كرز بن عامر البجلي . كان في الجاهلية يدعى " رب بجيلة " وقد كان شاعرا فاتكا مغوارا .أدرك الإسلام واسلم .انظر ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ص 38 .

3- الجاحظ: البيان والتبيين ج2، ص 27 .

4- يُنسب البيتان إلى أبي محجن، و إلى ابن أبي عتيق كما عند الجاحظ في الحيوان 2 / 22.

5- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر: الحيوان:تحقيق وشرح عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ط2، ج2، 1965، ص 194

6- ابن منظور: لسان العرب، مادة عَسَبَ واليَعسُوب : أمير النَحلِ وذكَرها .

7- ابن منظور: لسان العرب، مادة حِبرُ والحبرة بالتحريك : ضرب من برود الـيمن مُنَمَّـر، والجمع حِبَرٌ وحَبَرات.

قال حسان:" قال ابني الشّعر ورَبِّ الكعبة!"(1)

فالحكم الانطباعي عند حسان الأنصاري مبني على تذوقه جمال التعبير والتصوير في وصف ابنه

وقال خالد بن عبد الله القَسريّ، لعمرَ بن عبد العزيز:" من كانت الخلافة زانته فقد زيّنتَها، ومن كانت شرّفَته فقد شَرّفتَها". فأنت كما قال الشاعر:

وَتزيدين أطيبَ الطِّيبِ طيباً ... أن تمَسيه أينَ مثلُكِ أينا

وإذا الدُّرُّ زانَ حُسنَ وُجُوهٍ ... كأنَ للدُّرِّ حُسنُ وجهكِ زينا (2)

فقال عمر:" إنَّ صاحبَكم أُعطى مَقُولاً، ولم يُعطَ معقولا" (3). فعمر بن العزيز هنا يصور جمال الألفاظ في هذه الأبيات إلا أنه يرى أن الشاعر قد بالغ في الوصف؛ لذلك لم يُعط معقولا.

وقال كعب الأشقري لعمر بن العزيز:(4)

إن كنت تحفظُ ما يَليك فإنما ... عُمالُ أرضيكَ بالبلادِ ذئابُ

لن يستجيبوا للذي تدعو لهُ ... حتَّى تُجلّدَ بالسُّيوفِ رقابُ

بأكفِّ مُنصلتينِ أهلِ بصائرٍ ... في وقعهنَّ مَزاجِرٌ وعِقابُ

هلاَّ قُرَيشٌ ذَكرتْ بثُغورِها ... حزمٌ وأحلامٌ هُناكَ رِغاب

لولاَ قُرَيشٌ نَصرُهَا وَدِفاعُها ... ألفيتُ مُنقَطِعا بيَ الأسبابُ

---

1 – الجاحظ: الحيوان ج3، ص 65 .

2 – الأحوص الأنصاري: شعره: جمع وتحقيق عادل سليمان،تقديم شوقي ضيف ، ط2 ، مكتبة الخانجي،القاهرة، ، 19990، ص279 .

3 – الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص195 .

4 – هو كعب بن معدان الأشقري، والأشاقر قبيلة من الأزد، وأمه من عبد القيس، فارس خطيب معدود في الشجعان، من أصحاب المهلب .كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني ط1 ، ج13 ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1994، ص 54-61.

فلما سمع هذا الشعر قال: لمن هذا؟ قالوا: لرجل من أزد عُمان، يقال له كعب الأشقري! قال:"ما كنت أظنُّ أهل عمان يقولون مثل هذا الشعر"(1).فهذه الأحكام الانطباعية لم تقتصر على البيت والبيتين بل تناولت المقطوعات الشعرية الطويلة أيضا.

وقال أبو نوفل عبيد الله بن سالم لرؤبة بن العجاج: يا أبا الجَحَّاف مُتْ إذا شئت قال:"وكيف ذاك" ؟ قال رأيت اليوم عُقبة بن رُؤبة ينشد رجزا أعجبني.قال:"إنه يقول،لو كان لقوله قِران" (2).

وأنشد ابن الأعرابي :

وبات يدرسُ شِعرا لا قِرانَ له قد كان نَقَّحه حولا فما زادا

يقول الجاحظ:" إن هذا في اقتران الألفاظ فأما في اقتران الحروف فإن الجيم لا تقارب الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين، بتقديم ولا تأخير" (3).

وقال عمر بن لجأ لبعض الشُعراء:" أنا أشعر منك"! قال: وبم ذاك؟ قال:" لأني أقولُ البيتَ وأخاه، وأنت تقولُ البيتَ وابن عمّه" .

قال : وذكر بعضهم شعر النابغة الجعدي ، فقال : " مُطرفٌ بآلاف ، وخِمارٌ بواف (4)". وكان الأصمعي يفضله من أجل ذلك .(5)

وأنشد أبو العاص قال: أنشدني خلف الأحمر في هذا المعنى:

وبعض قريض القوم أولاد عَلَّةٍ يكد لسان الناطق المتحفظ (6)

1- الجاحظ: البيان والتبيين ج3، ص358.

2- يعيد الجاحظ سرد هذه القصة مرة أخرى ص205 .

3- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص68 .

4- ابن منظور: لسان العرب ، مادة طَرَفَ والمطرف بضم الميم وكسرها: واحد المَطارِف، وهي أردية من خز مربعة لها أعلام. والوافي: درهم وأربعة دوانيق ، ودرهم وافٍ يعني أنه يزن مثقالا .

5- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص206 .

6- ابن منظور: لسان العرب، مادة علل وأولاد العلة :هم بنو رجل واحد من أمهات شتى .

وقال أبو العاص: وأنشدني في ذلك أبو البيداء الرياحى :

وشعــر كبعــر الكبــش فرق بينـــه   لسان دعـــي في القريــض دخيــل (1)

فيعلق الجاحظ على قوله "وبعض قريض القوم أولاد علة" إنه إذا كان الشعر مستكرها، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض، كان بينها من التنافر مابين أولاد العَلاَّت.وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا ، كان على اللسان عند إنشاد ذلك مؤونة . وأما قوله "كبعر الكبش"فإنه قصد عدم الترابط والتفرق وقلة التماسك والتعاضد كما قالت ابنة الحطيئة لأبيها عندما نزل في بني كليب " تركتَ قوماً كراما ونزلتَ في بني كُليبٍ بعرِالكبش " فعاتبهم بتفريق بيوتهم(2) .

قال ابن الأعرابي: قال معاوية بن أبي سفيان لصُحار بن عَياشٍ العبــدي(3): مـــا هذه البلاغةُ التي فيكم؟ قال:" شيء تَجِيش به صدورُنا، فتَقذِفُه على ألسنتنا". فقـــال لـــه رجل من عُرْضِ القَوم: يا أمير المؤمنين، هؤلاء بالْبُــسْرِ والرُّطَــب، أبــصرُ مــنهم بالخُطَب. فقال له صُحار أجل والله،إنا لنَعلم إن الرِّيح لَتُلقِحُه، وإن البَــرد لَيعقِــدُه،وإن القمرَ ليَصبِغُهُ،وإن الحَرّ ليُنضِجُه.

وقال له معاوية:ما تعدُّون البلاغةَ فيكم؟ قال: الإيجاز. قال له معاويةُ : وما الإيجاز؟ قال صُحار:"أن تُجيب فلا تُبطيء وتقولَ فلا تُخطيء".فقال له معاوية:"أو كذالك تقول يا صُحار"؟ قال صُحار: "أَقِلني يا أمير المؤمنين ،ألا تُبطئ ولا تخطئ". (4)

1- يُنسب الشعر لعمر بن لجأ التيمي، انظر الجبوري، يحيى: شعر عمر بن لجأ التيمي، دار الحرية للطباعَة، 1967، ص144.

2- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص66، 67 .

3- هو صحار بن عيا ش – ويقال ابن عباس- بن شرحبيل بن منقذ العبدي، من بني عبد قيس، خطيب مفوه، كان من شيعة عثمان، له صحبة وأخبار حسنة،توفي سنة40 انظر ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ص4036.

4- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص96 .

يعلق الجاحظ على نقد معاوية بن أبي سفيان لصُحار بن عياش بقوله: لو أن سائلا سألك عن الإيجاز، فقلت: لا تخطئ ولا تبطئ، وبحضرتك خالد بن صفوان (1) لما عرَف بالبديهة وعندَ أولِ وهلة، أن قولك "لا تخطئ " متضمِّنٌ بالقول، وقولك "لا تبطئ "متضمِّن بالجواب. وهذا حديثٌ كما ترى آثروه ورَضوه ، ولو أن قائلا قال لبعضنا ما الإيجاز ؟ لظننتُ أنه يقول الاختصار، وحقيقة الإيجاز هي الحذف بقدر ما لا يكون سببا لإغلاق المعنى" (2) .

ويورد الجاحظ هذا الخبر قائلاً: "قال لي ابن الأعرابي: قال لي المفضل بن محمد الضبيُّ:قلت لأعرابي منا ما البلاغة؟ قال لي: الإيجاز من غير عجز، والإطناب في غير خَطَلٍ. قال ابن الأعرابي: فقلت للمفضل: ما الإيجاز عندكم؟ قال:" حذف الفضول وتقريب البعيد".

وعن قضية الإيجاز يقول ابن الأعرابي، قيل لعبد الله بن عمر :لو دعوت الله لنا بدعوات فقال: اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا! فقال له رجل: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن فقال: نعوذ بالله من الإسهاب" (3).

وعلى العكس من الإيجاز نجد من يتمسك بالإسهاب والإطالة إذ لم تُعِبه كما قيل إن أبا الحسن قال: قيل لإياس: ما فيك عيب إلا كثرة الكلام. قال فتسمعون صوابا أم خطأ ؟ قالوا: لا بل صوابا.قال: "فالزِّيادة من الخير خير" (4).

1- هو خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم التميمي المنقري ، كان يجالس عمر بن عبد العزيزوهشام بن عبد الملك، نشأ بالبصرة، وكان أكثر أهلها مالا، ولم يتزوج ، توفي نحو سنة 11هجري.انظر: معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، لياقوت الحموي، تحقيق وضبط: عمر فاروق الطباع، ط1، المجلد 4، ص186، مؤسسة المعارف، بيروت، 1999 .

2 – الجاحظ: الحيوان ج1، ص90 .

3 – الجاحظ: البيان والتبيين 1ج، ص97 .

4 – المصدر نفسه : 1/ 99 .

وفي الإطالة يذكر الجاحظ هذا الخبر، قال: "وجعل ابن السماك (1) يوما يتكلم وجاريةٌ له حيثُ تسمع كلامَه، فلما انصرفَ إليها قال لها: كيف سمِعتِ كلامي؟ قالت: ما أحسنَه، لولا أنك تكثر ترداده.قال: أردده حتى يفهمه من لم يفهمه. قالت: إلى أن يَفهَمَه من لا يفهمه قد ملّه من فهِمَه".

وقال عباد بن العوّام ، عن شعبة عن قتادة، قال : مكتوب في التوراة : " لا يعاد الحديث مرّتين "(2) .

وممن مُدِح بقلة الإعادة ، جعفر بن يحيى فقد قال فيه ثمامة بن أشرس:" كان جعفر بن يحيى أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهل، والجزالةَ والحلاوة، وإفهاما يُغنيه عن الإعادة. ولو كان في الأرض ناطق يستغنى منطقه عن الإشارة، لاستغنى جعفر عن الإشارة، كما استغنى عن الإعادة"(3).

وكان مويس بن عمران(4) يقول:" لم أر أنطق من أيوب بن جعفر ويحيى بن خالد، وكان سهل بن هارون يقول:" لم أر أنطق من المأمون أمير المؤمنين" (5).

1- هو ابو العباس محمد بن صبيح مولى بني عجيل ، المعروف بابن السماك ، سمع هشام بن عروة ،والعوام ابن حوشب ،وسفيان الثوري وروى عنه الحسين الجعفي ،واحمد بن حنبل وهو كوفي قدم بغداد زمن هارون الرشيد ،ومكث ببغداد مدة ثم رجع الى الكوفة فمات بها سنة 183 انظر صفوة الصفوة ،للإمام جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي ،تحقيق محمود فاخوري ، ط2 ، المجلد الثالث، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ،1979 ،ص105.

2- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص104 .

3- المصدر نفسه: ج1، ص105 .

4- مويس بن عمران : معاصر للجاحظ ،من بخلاء الناس ،ومن أصحاب النظام سُئل عنه أبو شعيب القلال فزعم أنه لم يرقط أشح منه على الطعام .انظر البخلاء ص71 .

5- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص115 .

ومن اللُّكن ممن كان خطيبا، أو شاعرا، أو كاتبا داهيا زياد بن سلمى أبو أمامة، وهو زياد الأعجم . قال أبو عبيدة : كان يُنشد قوله (1):

فتى زاده السُّلطان في الود رفعة إذا غير السلطان كلَّ خليل (2)

قال فكان يجعل السين شينا والطاء تاء ، فيقول : " فتى زاده الشلتان " .

ومن هؤلاء الخطباء سُحيم عبدُ بني الحسحاس(3)، أنشد عمر بن الخطاب (رحمه الله) قصيدته التي يقول مطلعها :

عُميرة ودِّع إن تجهزتَ غاديا كفى الشيبُ والإسلامُ للمرء ناهيا (4)

فقال له عمر :" لو قدَّمتَ الإسلام على الشَّيب لأجَزتُك". فقال له :" ما سَعَرت. يريد ما شَعَرت، جعل الشين المعجمة سينا غير معجمة" (5) .

وفي ذكر صفات اللسان قال أبو عبيدة: قال أبو الوجيه:حدَّثني الفرزدق قال: كُنَّا في ضيافة معاوية بن أبي سفيان، ومعنا كعب بن جُعيل التَّغلبيُّ، فقال له يزيد: إن ابن حسان يريد عبد الرحمن ابن حسان قد فضحنا! فاهجُ الأنصارَ. قال:" أرادِّي أنت إلى الإشراك بعد الإيمان لا أهجو قوما نصروا رسول الله ﷺ،ولكني أدلُّك على غلامٍ منا نصرانيّ كأنّ لسانَه لسانُ ثور يعني الأخطل" (6) وفي هذا إشارة إلى سلاطة لسانه وقدرته العالية على القول، وذلك لأن لسان الثور طويل فيدلل هذا الوصف على التمكن.

1- الجاحظ: الحيوان ج7، ص151 كان يزيد بن المهلب يعد هذا الشعر أحسن ما مدح به.

2- بكار، يوسف: شعر زياد الأعجم ، ط1 ، 1983 ، ص113 .يقول:

فتى زاده السلطان في الخير رغبة إذا غير السُّلطان كلَّ خليل

3- سحيم من المخضرمين ،قد أدرك الجاهلية والإسلام ،وكان أسود شديد السواد يرتضخ لكنة حبشية انظر الأصفهاني:في كتاب الأغاني، ج2، ص20 .

4- سحيم عبد بني الحسحاس: الديوان، تحقيق عبدالعزيز الميمنى، ط1 ، دار الكتب المصرية، 1950، ص16.

5- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص71 .

6- المصدر نفسه : ج1، ص172 .

وكان خالدٌ بن سلمة المخزومي(1) جميلاً ، ولم يكن بالطويلِ ، فقالت له امرأتُه: إنك لجميلٌ يا أبا صفوان .قال: وكيف تقولين هذا وما فيَّ عمود الجمال ولا رداؤه ولا بُرنُسه؟. فقيل له: ما عَمود الجمال؟ فقال: الطُّول، ولستُ بطويل؛ ورداؤه البياض ولست بأبيض؛ وبرنسه سواد الشعر، وأنا اشمط؛ ولكن قولي. إنَّك لمليح ظريف (2) .

وقال عبد الملك لخالد بن سلمة :" من أخطب الناس؟ قال أنا. قال: ثم من؟ قال سيد جذام- يعني روح بن زنباع(3) - قال ثم من ؟ قال أُخيفش ثقيف- يعني الحجاج - قال ثم من؟ قال أمير المؤمنين. قال: ويحك جعلتني رابع أربعة قال: نعم هو ما سمعت" (4).

وقيل للحجاج من أخطب الناس ؟ قال: صاحب العمامة السوداء بين أخصاص(5) البصرة. يعني الحسن البصري " (6).

ومن الخطباء من بني هلال بن عامر : زرعة بن صخرة. وهو الذي قيل فيه: "لولا غلوٌّ فيه ما كان كلامه إلا الذّهب"وقام عند معاوية بالشام خطيبا، فقال معاوية:" يا أهل الشام هذا خالي فائتوني بِخالٍ مثله"(7).

1- خالد بن سلمة المخزومي ،وكان يسمى ذا الضرس ،وذا الشفة .قتل مع يزيد بن مع يزيد بن عمر بن هبيرة سنة 132 انظر الجاحظ: الحيوان ج7، ص71 .

2 - الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص340 .

3- كان أحد ولاة فلسطين أيام يزيد بن معاوية انظر الأصفهاني في الأغاني ج17، ص111 وذكر الجاحظ في الحيوان ج1، ص226 إن عبد الملك زوجه أم جعفر بنت النعمان .

4 - الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص346 .

5- ابن منظور: لسان العرب، مادة خصص والخُص:بالضم البيت الذي يسقف عليه بخشبة على هيئة الأزج والجمع أخصاص .

6 - الجاحظ: البيان والتبيين ج2، ص286 .

7 - المصدر نفسه: ج1، ص354 .

ومن خطباء بني تميم:"عمرو بن الأهتم، كان يُدعى"المُكَحَّل" لجماله، وهو الذي قيل فيه: إنما شعره حُلَلٌ مُنَشَّرَة بين أيدي الملوك، تأخذ منه ما شاءت، ولم يكن في بادية العرب أخطب منه". ومن خطباء بني مِنقر: مؤمَّل بن خاقان. قال أبو الزُّبير الثقفي:" ما رأيت خطيبا من خطباء الأمصار أشبه بخطباء البادية من المؤمل بن خاقان"(1) .

ومن الخطباء معبد بن طَوق العنبري، دخل على بعض الأمراء، فتكلم وهو قائمٌ فأحسن، فلما جلس تتعتع في كلامه فقال له: ما أظرفك قائما، وأمْوَقَك قاعداً ! قال: إني إذا قمت جَددت وإذا قعدتُ هَزَلت. قال:" ما أحسَنَ ما خرجتَ منها" (2).

ومن الخطباء الشعراء:الطِّرِمَّاح بن حكيم الطائي وكنيته أبو نفر، قال القاسم بن معن: قال محمد بن سهل راوية الكميت:أنشدت الكميت قول الطرماح:

إذا قُبِضتَ نفسُ الطِّرِمّاحِ أخلَقَتَ عُرَى المَجد واسترخَى عِنانُ القَصائدِ (3).

قال: فقال الكميت :"إي والله،وعنان الخطابة والرواية".

وهذا دليل على الموضوعية والإنصاف بالرغم من الاختلاف والتعارض المذهبي بينهما إذ كان الكميت شيعيا من الغالية الزيدية، وكان الطرماح خارجيا من الصُّفرية . وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة، وكان الطر ماح يتعصب لأهل الشام . وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قطّ (4).

ومن خطباء الأمصار وشعرائهم والمولدين: بشار الأعمى، وهو بشار بن برد، وكنيته أبو معاذ ، وهو الذي يقول:

1- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص354 .

2- المصدر نفسه : ج1، ص349 .

3- الطرماح: الديوان، تحقيق عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، 1968، ص571 .

4- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص46 .

وأنـــي لمــِن قــَوم خُراسانُ دارهــم كــرام وفَرعـــي فيهــم ناضِرٌ بَسَــق (1)

يقول عنه الجاحظ: "إنه كان شاعرا راجزا ،وشجاعا خطيبا ،وصاحب منثور ومزدوج .وله رسائل معروفة". وقد أنشد عُقبةُ بن رؤبة ، عقبةَ بن سلم (2)، رجزا يمتدحه به ، وبشّارٌ حاضر، فأظهر بشار استحسان الأرجوزة ،فقال له عقبُة بن رؤبــة :" هــذا طرازٌ يا أبا مُعاذٍ لا تُحسِنُه" . فقال بشار :" ألمثلي يقال هذا الكلام ؟ أنا واللهِ أرجَــزُ منك ومن أبيك ومن جَدّك ". ثم غدا على عقبة بن سَلمٍ بأرجوزته التي أولها :

يـــا طَــلَلَ الحَـــيِّ بِــذَاتِ الصَّمــدِ باللـــهِ خَبــرِ كَيــفَ كُنــتَ بَعــدي(3)

ومن أحكام الجاحظ العابرة على بشار وغيره من الشعراء قوله :" والمطبوعون على الشعر من المولَّدين بشار العُقيلي، والسيد الحميري، وأبو العتاهية، وابن أبي عيينة، وقد ذكر الناس في هذا الباب يحيى بن نوفل، وسلما الخاسرَ، وخلف بن خليفة. وأبان بن عبد الحميد اللاحقي أولى بالطبع من هؤلاء، وبشار أطبعهم كلِّهم "(4).

1- بشار بن برد: الديوان، تحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ج4 ، الشركة التونسية للتوزيع، الجزائر، 1976، ص125 .

2- عقبة بن سلم : صاحب دار عقبة بالبصرة ،ابن نافع بن هلال بن اهبان ابن هراب بن عائذ بن بن خنزير بن أسلم بن هناءة .انظر الأصفهاني: كتاب الأغاني ج3، ص36.

3- بشار بن برد: الديوان، كتبت بالذات الضمد بضاد معجمة،وفي الأغاني والبيان والتبيين(الصمد) بصاد مهملة. والضمد : مكان.

يـــا طَــلَلَ الحَـــيِّ بِــذَاتِ الضَّمَــدِ باللـــهِ حــدِّث: كيــفَ كنــتَ بعــدي

4- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص50 .

أحكام عامة على الأبيات الشعرية :

وقال خلف الأحمر:" لم أر أجمعَ من بيت لامرئ القيس، وهو قوله" :

أفـــاد وجـــاد وســـاد وزاد وقـــاد وذاد وعـــاد وأفضـــل (1)

ولا أجمع من قوله :

لـــه أيطَـــلاَ ظَبيٍ وسَاقـــا نَعامـــةٍ وإرخـــاءُ سِرحـــانٍ وتَقـــريبُ تَتْفُـــلِ(2).

وقالوا:" ولم نر في التشبيه كقوله،حين شبه شيئين بشيئين في حالتين مختلفتين في بيت واحد"(3)، وهو قوله:

كـــأَنَّ قُلُـــوبَ الطَّيرِ رَطبـــاً ويَابسا لَـــدَى وَكرِها العِنَّاب والحَشَفُ البَالـــي (4).

قال ابن نُجيم: كان ابن ميادة يستحسن هذا البيت لأرطاة بن سُهَيّة : (5)

فقلـــت لها يـــا أمَّ بيـــضاءَ إنـــه هُـــريـــقَ شبابـــي واســـتَشَنَّ أديمـــي

وكـــان الأصـــمعي يستحـــسن قـــول الطرمـــاح بـــن حكـــيم، فـــي صـــفة الظَّلـــيم:

مجتاب شملـــة بُرجُـــدٍ لسَرَاتِـــه قَـــدْرا وأسلـــم مـــا سِـــوَاْهُ الـــبُرجُـــدُ (6)

ويستحسن قوله في صفة الثور:

يبـــدو وتُضمـــره البـــلاد كأنّـــه سيـــفٌ علـــى شرفٍ يُســـلُّ ويـــغمـــد

---

1 – امرؤ القيس: الديوان،شرح أبو سعيد السكري، تحقيق :أنور أبو سويلم ومحمد الشوابكة، ط1، مركز زايد، العين، 2000، ج2، ص 769.

2 – المرجع نفسه: ج2، ص742 .

3 – الجاحظ: الحيوان ج3، ص52، 53 .

4– امرؤ القيس: الديوان، ج1، ص359.

5–أرطاة بن سهية : هو ابن زفر بن عبد الله الغطافي المزني ،شاعر مشهور.وسهية أمة أدرك الجاهلية، وعاش إلى خلافة عبد الملك بن مروان . وقد ورد البيت منسوبا لطرماح في ديوانه ص 586 .

6– الطرماح بن حكيم: الديوان، تحقيق . عزة حسن ، ص 141 ، ص 146 ، ص 571 .

وكان أبو نواس يستحسن قول الطرماح :

وإذا قُبضَت نفسُ الطّرمَّاحِ أخلَقَت ... عُرى المجد واسترخى عنان القصائد

قال: وكان ربعيٌّ بن الجارود يستحسن قوله:(1)

فخير منك من لا خير فيه ... وخير من زيارتك القُعودُ (2).

ويقول أبو عبيدة في تفضيل أبيات لأمرىء القيس التي يقول فيها :.

ديمةٌ هَطلاءُ فيها وَطفٌ ... طبَقُ الأرض تَحَرَّى وتَدُرّ

تُخرج الوَدَّ إذا ما أشجَذَت ... وتُواريه إذا ما تَشتكِر

وتَرَى الضّبَّ خيفا ماهرا ... ثانيا بُرثُنَه ما يَنعَفِر (3)

فكان أبو عبيدة يقدم هذه القصيدة في الغيث على قصيدة عبيد بن الأبرص أو أوس بن حجر، التي يقول فيها أحدهما:

دانٍ مُسِفٌّ فوَيقَ الأرض هَيدَبُهُ ... يكادُ يدفعُهُ من قامَ بالرّاح

فمن بنَجوتَهِ كمن بعَقوتِهِ ... والمُستَكنُّ كمن يمشي بقِرواح (4)

ويعلق الجاحظ على رأي أبي عبيدة بقوله:وأنا أتعجب من هذا الحكم (5).

وقال بعض الشعراء (6) ، يهجو حارثة بن بد الغُدَانيَّ :

زعمت غُدَانَةُ أنَّ فيها سيدا ... ضخما يُوَاريهِ جَناح الجُنْدُبِ

وزعم ناس أنه قال:

يُرويهِ ما يُروى الذُّبابَ فينتشي ... سُكرا، وتُشبِعُه كُراعُ الأرنب (7)

1- يُنسب البيت لبشار بن برد، كما في كتاب الجاحظ الحيوان: ج3، ص466 .

2- الجاحظ: الحيوان ج3، ص464، 465 .

3- امرؤ القيس: الديوان، ج2، ص628.

4- البيتان من قصيدة في ديوان أوس بن حجر تحقيق،محمد نجم،ط2، دارصادر، بيروت، 1979، ص15، 16

5- الجاحظ: الحيوان ج6، ص131 .

6 - هو الابيرد الرياحي ، كما في الاغاني ج12، ص10 .

7- ابن منظور: لسان العرب، كرع " ويشبعه كُراع الجندب " . والكراع بالضم: من الإنسان ما دون الركبة إلى الكعب ومن الدواب: ما دون الكعب وتجمع على أكرع ثم على أكارع.

قالوا: لا يجوز أن يقول: يرويه ما يروى الذباب، و يوارِيه جَناحُ الجنـــدب، ثـــم يقول: يشبعه كراع الأرنب: وإنما ذكر كُراعَ الأرنب؛ لأن يد الأرنب قصيرة، ولـــذلك تسرع في الصُّعود ولا يلحقها من الكلاب إلا كـــل قـــصيراليد.وذلـــك محمـــود فـــي الكلب،والفرس توصف بقصر الذراع (1).

وقالوا لزياد الأعجم لِمَ لا تهجو جريرا؟ قال : أليس الذي يقول :

كـــأن بنـــي طُهَّيـــةَ رهطَ سلَمـــى حجـــارة خـــارئ يرمـــي كـــِلابا (2) .

قالوا: بلى . قال:" ليس بيني وبين هذا عمل" (3) .

" وكان مالك بن الأخطل قد بعثه أبوه ليسمع شعر جرير والفرزدق، فسأل أبوه عنهما فقال: "جرير يغرِف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر. فقال: الذي يغرف من بحرٍ أشعرهما" (4).

وقال الفرزدق لامرأته النَّوار: كيف رأيت جريراً؟ قالت، رأيتُك ظلمتَه أولا ثـــم شغرتَ عنه بِرِجلك آخِرا قال: أنا إنيه؟ قالت: نعم أما إنَّه قد غَلَبـــك فـــي حُلـــوة ، وشاركَكَ في مُرِّة(5).

ولما كتب بشير بن عُبيد الله على خاتمه:

بَـــشيـــر بن عبـــيد اللـــ ـــه بالـــرحـــمنِ لا يـــشرِك

وقرأ أبوه هذا البيت على خاتمه قال: "هذا أقبح من الشرك وفي الحاشية" إنما انتقده أبوه لأنه لا يكتب على خاتم إلا حسبي الله، وما أشبهه من اللفظ المختصر" (6).

---

1 – الجاحظ: الحيوان ج3، ص398 .

2- جرير: الديوان، شرح يوسف عيد، ط1، دار الجيل، بيروت، ص91 .

3- الجاحظ: البيان والتبيين ج2، ص250 .

4- المصدر نفسه: ج2، ص117 .

5- المصدر نفسه: ج2، ص181.

6- المصدر نفسه : ج2، ص216-219 .

الفصل الثاني
الآراء النفسية في مؤلفات الجاحظ

1.2 النقد الأدبي واتصاله بالدراسات النفسية :

لابد لنا في البداية أن نتوقف عند مفهوم الاتجاه النفسي الذي يُعرف على أنه اتجاه يعتمد على نتائج الدراسات والأبحاث النفسية التي تنسب إلى علم النفس أو التحليل النفسي للكشف عن جوانب الشعر باعتباره عملا فنيا، سواء منها ما يتصل بأبعاد العمل نفسه وخصائصه، ومنتجه، ومتلقيه، دون أن يهمل استخدام سائر المعارف المتاحة في شتى العلوم والفنون لتحقيق أهدافه وغاياته(1).

فهو يقوم على دعائم أساسية لعل أبرزها(2):

1 – الشرح والتفسير والكشف عن مزايا العمل الأدبي نفسه، وبيان جوانبه المختلفة.

2 – تقويم العمل الفني حتى يصل إلى درجة الحكم الشامل، وتفسير رموز ذلك العمل، وصوره الفنية من حيث أصالتها، وابتكارها، وامتياحها من اللاشعور، واستقصاء دلالاتها على صدق المبدع ذاته.

3– مدى تأثر المبدع بالمؤثرات الخارجية ، وانعكاسها على العمل الفني .

يقول محمد غنيمي هلال: " إن العلاقة بين النقد الأدبي والدراسات النفسية التجريبية منها أو التحليلية علاقة وثيقة جدا، حيث إن الدراسات النفسية فرع من العلوم الإنسانية التي تدرس نشاط الإنسان بوصفه إنسانا كالفلسفة والتاريخ وعلوم اللغة والنفس وغيرها، وهذه العلوم قسيمة للعلوم التجريبية التي تدرس الإنسان نفسه من جانب فيزيولوجي أو بيولوجي "(3).

1– أبـو الرضـا، سعد: الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي أصوله وقضاياه، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1981، 25 .

2– انظر المرجع نفسه : ص25، 26 .

3– هلال، محمد غنيمي: النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر، القاهرة، 1977، ص13 .

ويــرى عز الدين إسماعيل" أن العلاقة بين الأدب والنفس لا تحتاج إلى إثبات ؛ لأنـــه لــيس هـــناك من ينكرها ، وان حقيقة هذه العلاقة ليست شيئا مستكشفا للإنسان الحديـــث ، لأنها كانت قائمة منذ أن عرف الإنسان وسيلة التعبير عن نفسه . فقد أحس الإنسان منذ البداية هذه العلاقة ولمس آثارها وإن كان هذا الإحساس مبهما. حتى إذا بلغ مـــرحلة كافية من النضج راح يتأمل هذه العلاقة ويستكشف أسرارها. وتاريخ البلاغة القديمـــة لـــيس إلا صورة لمحاولة الإنسان المتجددة الدائبة في سبيل تحديد طبيعة هذه العلاقة" (1).

وقـــد قـــام الباحـــث محمـــد خلف الله بجهدٍ عظيم ،عندما تتبع النقد النفسي أو السيكلولجي كما يسميه، وذلك بعرض الصلة بين علم النفس والأدب في مختلف جوانبها النظرية، والتمثيل لبعض المجالات الهامة في تطبيقها، وإبراز أهم مراحل تطورها في دراسة العربية الحديثة، ومحاولة الكشف عن رافد من روافد النقد الحديث وهو الرافد النفسي، واستعان في هذا الكشف بتتبع مجرى التطور الذي مرَّت به الدراسات النفسية، والـــذي كان من أثره أن امتدت بحوث علم النفس إلى بعض ظواهر الأدب وميادينه، وان اتجهت أبصار رجال الأدب إلى الإفادة من تلك البحوث في درسهم ونقدهم. وعزَّز هذا البحث ذلك الواقع العملي بآراء بعض العلماء من هؤلاء وأولئك، بالعرض المفصّل لدراسات بلاغي عربي قديم، وأديب عالم حديث، وبإيراد شواهد من النقد الغربي والنقد العربـــي (مما يدل) على التلاحم الطبيعي بين الدراسات التي تبحث في أسرار النفس والنتاج الفني الذي ينبثق عن طبيعتها الواعية والباطنة (2) .

1- إسماعيل، عز الدين: التفسير النفسي للأدب، دار المعارف، القاهرة، 1963 ، ص13 .

2- خلـــف الله، محمـــد: مـــن الوجهـــة النفسية في دراسة الأدب ونقده، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ط 2، 1970، ص248 .

فمحمد خلف الله الذي قام بتتبع دقيق في دراسته للجانب النفسي عند المبدع والناقد الذي يصدر الحكم على العمل الأدبي ويفاضل بين الشعراء يعرف العمل الأدبي تعريفا يعيش فيه الناقد الحالة النفسية للمبدع فيقول:

" هــو أي العمل الأدبي وساطة بين المنشئ والمتذوق، يقوم فيه الناقد بجولة في آفاق التجربة الأدبية التي مرَّ بها المنشئ في إبداعه، يتعرف أسرارها، ويتقمص مشاعر صـــاحبها، ويعود بكل ذلك إلى المتذوق ليساعده على أن يعيش التجربة ذاتها، وينفعل بأحاسيســـها، ويســـرح مع خيالها .وفي ذلك يكمن السّر الأكبر للّذة الأدبية، ويبلغ الفن غايته من الإبداع والإمتاع"(1)

2.2 دراسة توثيقية في أصل صحيفة بشر بن المعتمر:

يشـــير إبراهـــيم ســـلامة في لمحة سريعة إلى شكه في الصور التي نقلت فيها الصـــحيفة دون الإشارة إلى الشك في الصحيفة نفسها فهو يرى أن هذه الصورة التي نقلت بها الصحيفة هي من صنع الجاحظ وهي قوله: " مرَّ بِشر بن المعتمر بإبراهيم بن جـــبلة بـــن مخـــرمة السَّكونيّ الخطيب، وهو يعلِّم فتيانهم الخَطابة، فوقف بِشرٌ، فظنّ إبراهيمُ أنّه إنما وقفَ ليستفيد أو ليكون من النَّظّارة، فقال بشر: اضربُوا عمّا قال صَفحا واطوُوا عنه كَشحا.ثم دفعَ إليهم صحيفةً من تحبيره وتنميقه " (2) .

ويرى إبراهيم سلامة أن الجاحظ قد وضع هذه المقدمة وهو مدفوع بدافعين: (3)

1-تأثره بما لدى اليونان من بلاغة وأساليب خاصة بهم كالمنطق والجدل .

2-تعصبه للعرب ومحاولة إثبات أسبقيتهم، مدفوعا في ذلك بعاطفته العربية .

1- خلف الله: من الوجهة النفسية ص 249 .

2- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص135 .

3- سلامة، إبراهيم: بلاغة أرسطو بين العرب واليونان دراسة تحليلية نقدية تقارنية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 2 1952، ص 71- 76 .

لم يقف الشك عند هذا الحد فحسب بل تعداه إلى الشك في صحة ونسبة هذه الصحيفة إلى بشر بن المعتمر، وأن هذه الصحيفة هي من صنع الجاحظ كما يرى مجيد ناجي والذي يقول إن هذا الشك يتأتى للأمور التالية:(1)

1- أن الجاحظ انفرد برواية هذه الصحيفة، مع أنها لأهمية ما جاء فيها والظروف التي تُليت فيها

كما جاء في رواية الجاحظ من وجود فتيان وأناس اجتمعوا لتعلم الخطابة والبلاغة ،فقد كان ينبغي

أن تذاع وتنتشر وتتناقلها الرواة والأقلام والكتب. وهذا ما لم نعثر عليه .

2- وإذا علمنا أن معظم الرواة لا يوثقون الجاحظ، بل يطعنون في صحة روايته (2) رجح لدينا أن الجاحظ يجوز لنفسه ابتكار مثل هذه القصص وروايتها.

1-ثمة شيء آخر لا أستطيع أن أقربه بدليل، لأنه يرجع إلى الحاسة، ولكني أرجع القارئ لكتب الجاحظ فلعله يتذوق ويحكم بما حكمت، وهو أن أسلوب كتابة الصحيفة مشـــابه لأسلوب الجاحظ في كتاباته ومن خلال ذلك يستنتج بأن الأسلوب واحد وأن الكاتب لابد أن يكون واحدا، وهذا الاستنتاج يعتمد على الذوق والإحساس الفني، أكثر منه على أي شيء آخر .

وقد توقف عدنان العلي عند هذه الشكوك محاولا الرد عليها وتفنيد ما لا ينطبق مع المنهج العلمي وذلك من خلال تقسيم هذه القضايا إلى وجهتين : (3)

الوجـــه الأول: وهو الشك الذي ألمح إليه إبراهيم سلامة في مقدمة الصحيفة، إذ إنه شك علمي مقبول للأسباب التالية :

---

1 - ناجي، مجيد عبد الحميد: الأثر الإغريقي في البلاغة العربية من الجاحظ إلى ابن المعتز، مطبعة الآداب ،بغداد، 1976، ص 88 .

2- انظر: ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، تحقيق: محمد المرعشلي، ط1، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ج 5، ص286 .

3- العلي، عدنان: صحيفة بشر بن المعتمر وأثرها في النقد العربي القديم، منشورات جامعة آل البيت ،2000 ، ص 36 .

1- انفـــراد الجـــاحظ بـــرواية المقدمة فلم يروها العسكري وابن رشيق اللذان رويا الصحيفة (1).

2- اشتمال المقدمة على تجاوز لا يفعله بشر، وزراية بالمعلم لا مسوغ لها وعلى مرأى ومســـمع من طلابه، أو النظارة، والغريب بأن هذا المعلم رضي بهذا التجاوز بل استبشـــر بـــه، إذ كان بالإمكان أن يعطيه الصحيفة، وقد كانت مكتوبة من دون زرايـــة، أو تنكـــيل .ويرى العلي أنه ليس بالضرورة أن تكون المقدمة من صنع الجـــاحظ إذ يمكن أن تكون رويت له، ولم يُحسن راويها نقلها، أو لم يكن أمينا في نقلها، وسواء أكان الجاحظ صانعها أم غيره، بل وإن كان الجاحظ صانعها لم يبعد، إذ عُرف بتهكمه وسخريته، وكان المعلمون من إحدى الشرائح التي سخر منها .

وإذا علمـــنا أن الجاحظ قد استعان بالوراقين لكتابة ما ألفه من الكتب، لم يكن من الغريب أن يضع أحد الوراقين هذه المقدمة ظنا منه بمناسبتها لهذا المقام .

3- لم يُعرف في تاريخ التعليم العربي القديم أنه كان يجري في الشوارع أو المحلات العامـــة كما تُشير المقدمة إذ المعروف أنه كان يجري في المساجد، وأنه من غير المعقول أن ذلك المعلم لا يعرف متكلما مشهورا، يتزعم مدرسة كلامية، فظنه أحد الـــنظارة وقـــف ليســـتفيد، ولم يكن هذا المعلم معروفا بالعلم لكي يقف بشر أمامه للاستفادة.

ويرى الباحث أن هذه المقدمة ربما كانت من وضع الوراقين الذين ينسخون الكتب في العصور المتعاقبة، على أن ما قاله عدنان العلي أقرب إلى الصوب في هذه القضية.

الوجه الثاني: وهي شك مجيد ناجي في صحة ونسبة الصحيفة إلى بشر بن المعتمر وقوله : إنها من صنع الجاحظ فهو مرفوض للأسباب التالية(2) :

1- انظر العسكري: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي البجاوي، ط 1، دار عيسى البابي الحلبي، 1952، ص 135. وكتاب ابن رشيق: العمدة، باب عمل الشعر، تحقيق محمد قرقزان، باب عمل الشعر.

2- العلي: صحيفة بشر بن المعتمر، ص 36 .

1- لم ينفرد الجاحظ برواية الصحيفة فقد رواها العسكري، وابن رشيق دون أن يُشيرا إلـــى أخذها من الجاحظ، بل قالا: إنها صحيفة كتبها بشر، ولكن دون ذكر المقدمة التي رواها الجاحظ .

2- ولأهمـــية الصحيفة وسبقها لم يشك أحد من القدماء في نسبتها إلى بشر برغم(شك بعضهم برواية الجاحظ) كما يرى ناجي .

3- ذكـــر الأســـتاذ ناجي أن (معظم الرواة) لا يوثقون الجاحظ بل يطعنون في صحة روايته ولم يذكر غير العسقلاني. وكانت عبارة (معظم) التي استخدمها تحتاج إلى أن يقدم لها عدد من الرواة و المؤرخين، ممن لا يحملون للجاحظ كراهية أو عداء فكريا.

غير أن المسعودي نقل عن الجاحظ نقلا غير دقيق كلاما (مُتشائما ساخرا) وهو ما لم يذكره مجيد ناجي .قال المسعودي: " وقد ذكر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أنـــه كان يؤلف الكتاب الكثير المعاني الحسن النظم،فينسبه إلى نفسه فلا يرى الأسماع تصـــغي إليه ولا الإرادات تيمم نحوه ،ثم يؤلف ما هو انقص منه مرتبة وأقل فائدة ثم يـــنحلهُ عـــبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين ومَن طارت أسماؤهم في المصنفين فيقبلون على كتبها، ويُسارعون إلى نسخها لا لشيء إلا لِنسبتها إلى المتقدمين "(1) .

ولـــم يكن المسعودي دقيقا،أو أمينا لأن الجاحظ قال: " وربَّما ألفتُ الكتاب الذي هو دونَه في معانيه وألفاظه، فأترجمه باسم غيري، وأُحيله على مَن تقدَّمني عصرهُ مثل ابن المقفع والعتّابي وغيرهما ،فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكمَ من هذا الكتاب، لاستنساخِ هذا الكتابِ وقراءته علـــيّ، ويكتبونه بخطوطهم،

1- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: التنبية والأشراف، تصحيح عبد الله الصاوي، المكتبة التاريخية، القاهرة، 1938 ،ص 66 .

ويــرووته عنّي لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة، ويأتمُّ بهم قومٌ فيه لأنه لم يترجَم باسمي، ولم يُنسب إلى تأليفي " (1) .

وفي كلام الجاحظ هذا كما يرى العلي محاور متعددة للرِّد على قضية الطعن في توثيق ما ينسبه الجاحظ لغيره وهي(2) :

قول الجاحظ (ربما) إذ ليس بالضرورة أنه قد فعل ذلك ومضى عليه، وقد يدلل قوله هــذا على السخرية والتهكم الذي عُرف به الجاحظ، أما ذكره لبعض أسماء المتقدمين الذين جاءوا بعد بشر بن المعتمر ولم يذكر بشرا ،فكان من الأولى أن يذكره معهم ذلك لشهرته وأقدميته عليهم، بالإضافة إلى أنه ليس من المعقول أن يؤلف أحد كتبا وينسبها إلــى غــيره وهــي خير ما يملكه الأديب، أما طلبُه الشهرة أو لأن الناس لا تعرفه، فالجــاحظ في كتابه البيان والتبيين الذي يذكر فيه الصحيفة يُعد علما من أعلام الأدب العربي، يتزعم مدرسة فكرية وهي المدرسة الجاحظية.

4-قال مجيد ناجي إن بين الصحيفة، وأسلوب الجاحظ شبها ولم يبن هذا الرأي المهم إلا علــى الحــدس الذي صرح به، دون أن يقدم، أو يُحيل إلى نص أو أكثر من أدب الجاحظ الذائع الصيت.

ويرى الباحث أن ما قاله مجيد ناجي هنا مبني على الذوق، وهذا الذوق أو الحدس لا يُقــبل فـــي لغة البحث العلمي، أما ما يستنتجه الدارس لكتب الجاحظ من توافق في أسلوب كتب الجاحظ وأسلوب هذه الصحيفة، فإنني أقول وبالرغم من وجود توافق في هذين الأسلوبين أن مرد ذلك لانتماء الجاحظ للمدرسة الكلامية والفكر الاعتزالي الذي ينتمي له بشر بن المعتمر، لذلك كان من الطبيعي أن يتقارب أسلوب الجاحظ مع أسلوب أستاذه، فكيف لا يؤثر المعلم في طريقة تلميذه ؟

1- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ط 1، ج 1، 1991، 351.

2- انظر العلي : صحيفة بشر بن المعتمر ، ص 39 .

5- لــيس من المعقول أن يكتب الجاحظ عملا مهما كالصحيفة، ثم ينسبها إلى غيره، ولــيس فــيها ما يخشى منه، فهي ليست حكاية، أو هزلا ينحلها غيره كما فعل في رسالة القيان، أو سخرية اجتماعية فيها الوضع الفني كما فعل في كتابه البخلاء الذي كــان اســتجابة لنزعــته الفنية هذه في وضع الأحاديث، وتوليدها لغرض السخرية والفرق بين الوضعين واضح والغاية مختلفة .

6-إن الذي يبعث على الدهشة أن يستكثر مجيد ناجي، أو يستغرب نسبة هذه الصحيفة إلى أستاذ الجاحظ، وزعيم مدرسة فكرية مشهورة .

3.2 عرض لصحيفة بشر بن المعتمر وما تضمنته من آراء نفسية (1):

تُعد صحيفة بشر بن المعتمر من أهم المصادر التي رفدت النقد الأدبي بأهم القضايا النقدية، ولعل أبرز هذه القضايا النقدية، التركيز على النواحي النفسية كما سيأتي معنا لاحقـــا وفي أهمية هذه الصحيفة يقول عبد القادر فيدوح:" بان هذه الصحيفة تأتي فتعقّد لمـــنهج الـــنقد البلاغي الأدبي الذي سلكه البلاغيون فيما بعد، ولتوحّد معالَمهم النقدية المتشعبة بما يتحد مع الحالة النفسية لتفسير عملية الإبداع . ويتبين من هذا أن أثر ذوق بشـــر فـــي غيره واضح المعالم ، من حيث استكناه ذات المبدع وجوانبها النفسية التي كانـــت محـــل أنظار الدارسين من قدامى ومحدثين، مما جعل النقاد يركزون على أن صحيفة بشر تُعد أهم انجاز بلاغي عرفه تراثنا النقدي" (2) .

وفيما يتعلق بأهمية الصحيفة من الناحية النفسية، فتكمن الأهمية في محاور متعددة كما يبينها عبد القادر فيدوح منها (3):

1- انظر(نص الصحيفة) الجاحظ : البيان والتبيين ج1، ص135

2- فيدوح، عبد القادر: الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، ط1، دار صفاء للنشر، 1998، ص26.

3- انظر المرجع نفسه : ص 26..

التهيؤ النفسي للتفكير: فالنفس البشرية تجود القريحة فيها في أوقات وتخفتُ في أوقات، وهذا ما قصده بشر بن المعتمر حين قال: " خذ من نفسك ساعة نشاطك، وفراغ بالك ، وإجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرمُ جوهرا، وأشرَفُ حسَبا، وأحسن في الأسماع، وأحلَى في الصدور، وأسلَمَ من فاحش الخطَاءِ، وأجلَبُ لكلِّ عين وغُرّةٍ، من لفظٍ شريف ومعنّى بديع"(1).

فهـناك أوقـات يشـعر الإنسان بأنها تناسبه أكثر من غيرها، ويتأتى له القول فيها وتنـثال عليه المعاني، كما يقول الفرزدق :" أنا عند الناس أشعر العرب، ولرُبَّما كان نزعُ ضِرسٍ أيسر عليَّ من أن أقول بيت شعر" (2) .

وفي جودة القريحة و انثيال الكلام نجد هذه الالتفاتة الجميلة من الجاحظ إلى ما يعتري النفس البشرية من تقلبات وتغيرات ، فيقول : " وليعلم أن صاحب القلم يعتريه ما يعتري المُؤدِّبَ عند ضربه وعقابه، فما أكثر من يَعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة ؟ ! لأنَّه ابتدأ الضرب وهو سانُ الطباع، فأراه السكونُ أن الصواب في الإقلال، فلمـا ضرب تحرّك دمهُ، فأشاع فيه الحرارة فزاد في غضبه، فأراه الغضبُ أنّ الرأي في الإكثار. وكذلك صاحب القلم، فما أكثر من يبتدئ الكتابَ وهو يريد مقدارَ سطرين، فيكتب عشرة ! والحفظُ مع الإقلال أمكن، وهو مع الإكثار أبعد ". (3) .

العناية باختيار وقت عملية الإبداع:

وذلـك لأن الـنفس البشـرية قد تجود بالشعر والأدب في أوقات معينة قد تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، فتعبير الإنسان في حال طربه وفرحه يختلف عن تعبيره فـي حـال توتره وقلقه مما ينعكس على العمل الأدبي، وهذا ما تنبه له النقاد العرب القدامى في أدبهم، وساهموا في الكشف عـن حقيقة النفس، وهو ما أشار إليه بشر في

1- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص135 .

2- المصدر نفسه: ج1، ص130 .

3- الجاحظ: الحيوان ج1، ص88 .

صـــحيفته التي ركّز فيها على القيمة الجوهرية لميقات العملية الإبداعية، وألزم فيها مخاطبه على ضرورة اختيار ساعة نشاطه وقتا للقراءة يغذي بها عقله، علّهُ يصل إلى مبتغاه، لأن العمليةِ الإبداعية لا يدركها الشاعر كل لحظة سواء أأعنت نفسه بالجهد أم بالمعاودة والتكلف(1).

وهذا مانجده في قول بشر بن المعتمر: ". وأعلَم أن ذلك أجدى عليك ممَّا يُعطيك يومك إلا الأطولُ، بالكدِّ والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلُّف والمعاودة.ومهما أخطأَك لم يُخطئك أن يكون مقبولا قَصداً، وخفيفا على اللِّسان سهلا؛ وكما خرج من يَنبزِعه(2) ونَجَم من مَعدِنِـــه. وإيـــاك والتوعُّرَ، فإن التوعُّرَ يُسلِمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلِكُ معانيَكَ . (3).

الاستعداد الفطري:

وهـــو مـــا نعني به الطبيعة أو الموهبة التي يمتلكها الشخص والقدرة على القول والإجادة فيه، وهو ما يتعلق بقضية الصنعة والتكلف، حيث إن للطبع أهمية عظمى في عملـــية الخلق الفني وتأثيره في نوعية الفاعلية الإبداعية، وما يترتب عليها من جدّة في التفكـــير وجديـــة في الصياغة، وذلك بفضل القدرة العقلية، وما يصاحبها من مكونات مرتبطة أساسا بالموهبة، والقوة الإدراكية ، والعملية الذهنية (4) .

فقد ركّز بشر بن العتمر على هذه المكونات عندما تحدث عن قضيتي الطبع والتكلف حين قال: ". فإن ابتُليت بأنّ تتكلّف القول وتتعاطى الصّنعةَ، ولم تَسمَح لك الطِّباعُ في أول وَهلة وتعاصَى عليك بعدَ إجالة الفكرة،فلا تَعجَلْ ولا تَضجَر، ودَعهُ لبياض يومك

1- انظر فيدوح: الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي،ص28 .

2- العســـكري، أبـــو هلال العسكري ،كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل، ط1، دار أحياء الكتب العربية، 1952، ص134. قال: عن ينبوعه .

3- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص136.

4- انظر فيدوح: الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، ص 29 .

وســـوادَ ليلتِك، وعاوده عند نشاطِك وفراغِ بالك؛ فإنَّك لا تَعدم الإجابةَ والمواتاة، إن كانت هناك طبيعةٌ ، أو جريَتَ من الصِّناعة على عِرق" (1).

الطاقة الشعورية:

لقـــد توصـــل النقاد العرب القدامى إلى درجة عالية من التفكير النقدي البلاغي، وبخاصة ما أشار إليه بشر بن المعتمر في المواصفات الخاصة لعملية الإبداع باهتدائه إلـــى القدرات الإبداعية وما يصحبها من نشاطات نفسية في أثناء عملية التفكير ساعة نشـــاط المبدع. وفي حالة انقباضه وشدة الجهد الذي يرهق تفكيره، فان ذلك يؤدي إلى نـــوع من التصلب والجمود، والشعور بالضيق. ولا يتحرر من هذه الحالة إلا بإطلاق مشاعره المكبوتة حيث تتجدد أفكاره، من خلال استعاده نشاطه وحيويته، ولا يتأتى ذلك إلا بخلق انسجام بين فاعلية الإبداع والطاقة الحيوية المتوفرة لديه بغية السعي نحو غاية أســـمى فـــي حـــياته الإبداعية، وهذه الأمور كلها تساهم في تهيئة الجو الملائم للمبدع ولعملية الإبداع (2).

وهذا ما أراده بشر بن المعتمر في قوله : " ، والشيءُ لا يحِنُّ إلا إلى ما يشاكلُه، وإن كانـــت المشـــاكلة قد تكون في طبقات؛ لأن النفوسَ لا تجود بمكنونها مع الرّغبة، ولا تَسمَح بمخزونها مع الرّهبةِ، كما تجود به مع الشّهوة والمحبّة" **(3).**

وفي الحديث عن التهيؤ النفسي وعملية الإلهام الشعري نجد هذه المواقف الأدبية التـــي تبيـــن لنا مدى التفاوت بين المبدعين في عملية الإبداع الأدبي ، ومواقيت الخلق الفنـــي حيث قال بعض الشعراء لرجل:" أنا أقول في كل ساعة قصيدة وأنت تقرضها في كل شهر فلِمَ ذلك" ؟ قال: "لأنني لا أقبل من شيطاني مثل الذي تقبل من شيطانك" قال:وأنشد عقبة بن رؤبة أباه رؤبة بن العجاج شعرا وقال له : كيف تراه؟ قال:" يا بني

1- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص138 .

2- فيدوح: الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، ص 31 .

3- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص138 .

إن أباك ليعرض له مثل هذا يمينا وشمالا، فما يلتفت إليه"(1) .

وهـذا الفرزدق وقد كان مستهترا بالنساء،و زير غوان وبالرغم من ذلك فليس له بيت واحد في النسيب مذكور،مع حسده لجرير.وجرير لم يعشق امرأة قط، وهو مع ذلك أغزال الناس شعرا(2).

وفي هـذا الصـدد يعلق الجاحظ على هذه القضية قائلا : "ومن الشعراء من لا يستطيع مجاوزة القصيد إلى الرجز، ومنهم من لا يستطيع مجاوزة الرجز إلى القصيد، ومنهم من يجمعهما كجرير وعمرو بن لجأ وأبي النجم، وحميد الأرقط والعماني. وليس الفـرزدق فـي طواله بأشعر منه في قصاره .ومن الشعراء مَن يخطب وفيهم من لا يسـتطيع الخطابـة، وكذلك حال الخطباء في قريض الشعر.والشاعر نفسه قد تختلف حالاتُه" (3) .

وقال الفرزدق: "أنا عند الناس أشعر الناس وربما مرت على ساعة ونزع ضرس أهون علي من أن أقول بيتا واحدا "(4) .

وقال العجاج: " لقد قلت أرجوزتي التي أولها:

بـكيـتُ والـمُختَزِنُ البَكـيُّ وإنمّا يـأتي الصَّـبا الصَّبـيُّ

أَطـرَبـا وأنـتَ قِـنَّسـرِيُّ والـدّهـرُ بالإنسـان دَوَّارِىُّ(5)

1- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص207 .

2- المصدر نفسه: ج1، ص208 .

3- المصدر نفسه: ج1، ص209.

4- المصدر نفسه: ج1، ص209.

5- العجاج، عبد الله بن رؤبة: الديوان، تحقيق: عزة حسن، مكتبة دار الشروق، بيروت، 1971، ص66

وأنا بالرَّمل، في ليلة واحدة، فانثالَت عَلَيَّ قوافيها انثيالا، وإني لأُريد اليومَ دونَها في الأيامِ الكثيرة فما أقدِر عليه "(1).
وقال أبو يعقوب الخريمي: "خرجتُ من منزلي أريد الشَّمَّاسية، فابتدأت القول في مرثية لأبي التختاخ، فرجعتُ والله وما أمكنني بيت واحد "(2).
وقال الشاعر:

وقد يقرض الشعر البكى لسانه   وتُعيى القوافي المرءَ وهو خَطيبُ

ففي هذا إشارة لاختلاف أحوال المبدعين في التعبير من وقت لآخر، إذ قد تجود قريحة المبدع في بعض الأوقات لكنها قد تعجز عن القول في بعضها الآخر .

والخلق الأدبي والتهيؤ النفسي لم يقتصر على الشعر والشعراء فحسب، بل تعداه إلى الرجز والخطب، فهذا معبد بن طوف العنبري، دخل على بعض الأمراء فتكلم وهو قائم فأحســن، فلمَّا جلس تتعتع في كلامه، فقال له:" ما أظرفَكَ قائما، وأموَقَك قاعدا!" قال:" إني إذّا قمت جَدَدت وإذا قعدتُ هَزَلت". قال:"ما أحسَنَ ما خرجتَ منها". (3)

وفي الأثر النفسي الذي تتركه قوة شخصية المتكلم في نفس المتلقي قول أبي عبيدة : حدثني أبو عبد الله الفزاري، عن مالك بن دينار قال:" ما رأيت أحدا أبينَ من الحجاج إن كان لَيرقى المنبر فيذكُرُ إحسانَهُ إلى أهل العراق، وصَفحه عنهم وإساءتهم إليه، حتى أقول في نفسي: إنني لأحسبه صادقا، وإني لأظنّهم ظالمين له " (4).
فــي هذا دلالة على أثر طريقة التعبير في نفس المتلقي إذ إن قوة التعبير تدفع المتلقي لأن يصدق الإنسان وإن كان كاذبا .

1- الجاحظ : البيان والتبيين ج1، ص209
2- المصدر نفسه ج1، ص209 .
3- المصدر نفسه ج1، ص348 .
4- المصدر نفسه: ج2، ص268 . .

وفـــي الحديــث عن أثر المواقف والظروف التي مرت بالشاعر في العمل الأدبي يقول الباهلي: قيل لأعرابي:" ما بال المراثي أجود أشعاركم"؟ قال: "لانا نقول وأكبادنا تحترق"، قال أبو الحسن: "كانت بنو أمية لا تقبل الرَّوايةَ إلا أن يكون راويةً للمراثي". قيل ولم ذاك؟ قيل:" لأنها تدل على مكارم الأخلاق"(1).

وفي هذا إشارة للتعبير في حالة هيجان النفس البشرية بالمشاعر التي تندفع من داخل لإنسان فتترك الأثر العظيم في نفس صاحبها، فتخرج هذه المشاعر الصادقة من القلب فتقع في القلب .

أمـــا قضية الإلهام في العمل الأدبي فيقول الجاحظ : " كل شئ للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه الهام، وليس هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة " (2). إلا أن قضية الإلهام الشعري لم تكن متبلورة بمفهومها الحديث، لكننا نجد لهذه القضية جذورا ضاربة في نقدنا العربي القديم خاصة عندما يتحدث المبدع عن شياطين الشعر.

فهاهو الجاحظ يتناول هذه القضية بشيء من التفصيل عندما تحدث لنا عن شياطين الشـــعراء فـــي مواطـــن كثيرة من كتاباته ،وسنقف على هذه القضية حتى نستجلي ما وراءها من أبعاد نفسية

فالجاحظ يروي لنا هذا البيت الذي تحدث فيه صاحبه عن الغول ،وذكر أسماء بعض شياطين الشعر(3) :

وبنت عمـــرو وخالها مِسحَـــل الخي ر وخـــالى هُميمُ صاحب عمرو

يُعلق الجاحظ على هذا لبيت فيقول: "إنهم يزعمون أن مع كل فحل من الشعراء شيطانا يقـــول ذلك الفحل على لسانه الشعر فزعم البهراني أن هذه الجنية بنت عمرو صاحب المخبَّل، وأن خالها مِسحل شيطان الأعشى. وذكر أن خاله هُمَيم وهو همّام، وهمّام هو

1- الجاحظ: البيان والتبيين ج2، ص320 .

2- المصدر نفسه: ج3، ص88 :

3- الجاحظ: الحيوان ج6، ص225 .

الفـــرزدق، وكـــان غالـــب بن صعصعه إذا دعا الفرزدق قال: يا هميم". وأما قوله: " صاحب عمرو " فكذلك أيضا يُقال إن اسمَ شيطان الفرزدق عمرو (1) .

وقد ذكر الأعشى مِسحلا حين هجاه جُهُنَّام فقال :

حباني أخـــي الجنّيُّ نفســـي فـــداؤه بـــأفيَحَ جَيّـــاشِ العَشيّـــات خِضرِمِ(2)

وقال أعشى سليم :

ومـــا كـــان جِنّيُّ الفـــرزدقِ قـــدوةً ومـــا كـــان فيهـــم مثلُ فحلِ المخبّـــلِ

ومَـــا في الخَوافـــي مثلَ عَمرو وشيخِهِ ولا بعدَ عَمرو شاعـــرٌ مـــثلُ مِسحَـــلِ(3)

وبالـــرغم مـــن أن الجـــاحظ قد أفاض في الحديث عن الشياطين، وقصصهم مع الشـــعراء إلا أنه لم يؤمن بهذه الرواية وذلك من خلال تعليقه على هذه الأبيات وعلى روايات الجن التي تناقلها الأعراب(4)

وفي هذا الصدد يقول عبد الرزاق حميدة :" إن من الذين عرضوا لخرفات العرب مـــن المتكلميـــن إبراهيم بن سيار النظّام وتلميذه الجاحظ ،وقد تحدثا بوجه خاص عن الشياطين والجن والغيلان فرفضا صحة الفكرة،وإن سلما بوجودها عند الأعراب،فكان لمقاييسهما العقلية أثرها في أبحاثهما(5)

أمـــا من الوجهة النفسية: فإن ظاهرة شياطين الشعراء تستند إلى قضية الإبداع أو الإلهام الشعري والذي يعرفه فليكس كلاي بقوله :" إننا نطلق كلمة الإلهام على لحظات الإبـــداع الفجائـــية وهـــي لحظـــات تنتابنا مصحوبة بأزمات انفعالية ،وتبدو بعيدة عن العملـــيات العادية للعقل والشعور بعيدة عن حكم الإرادة وسيطرتها، تأتي غير متوقعة

1- الجاحظ: الحيوان: ج6، ص225 .

2- الأعشى: الديوان، شرح يوسف شكري فرحات،دار الجيل، بيروت،ط1، 2005، ص274.

3- لم أجد لهما نسبة .

4- انظر الجاحظ: الحيوان ج 6، ص 225، 233 .

5- حميدة، عبد الرزاق: شياطين الشعراء ، مكتبة الأنجلو المصرية ،القاهرة، 1956، 204.

ومجيئها غير مرهون بدعائنا،كالنوم **والأحلام**"(**1**)

وفيما يتعلق بإيمان علماء النفس بظاهرة شياطين الشعراء، فإنهم لم يُؤمنوا بها إيمانا تامـــا بل فسروها تفسيرا علميا يُرجعها إلى مواهب خاصة،واستعدادات فطرية،تغذيها عوامـــل مخـــتلفة كالبيئة والثقافة.وتدفع إليها دوافع مباشرة كالغرائز عامة، أو بعض الغرائز كحب الظهور أو الجنسية(2)

ويـــرى علماء النفس أن الإنتاج الأدبي ظاهرة لا شعورية في بعض أوقاتها، يُعد المســـؤول عنها العقل الباطن كما يُسمى أحيانا أو الحياة النفسية، والتي تُقسم إلى ثلاث طـــبقات هي: الطبقة العليا وهي الشعور، والطبقة الثانية وهي شبه الشعور، أما الطبقة الثالـــثة فهي اللاشعور أو العقل الباطن ،والذي يشتمل على الأفكار الدفينة والرغبات المكبوتة والتي تحتاج إلى ما يخرجها إلى حظيرة الشعور ،فتُحل العقد النفسية، ومن هذا القبيل ما يُسمى "بالهاتف النفسي " الذي يُخاطب الشعور خطابا يترتب عليه حل بعض ما كان قد استعصى عليه حله من مشكلات ولست أشك في أن شياطين الشعراء الذين تتحدث عنهم الأساطير الأدبية ليسوا إلا شخصيات منتحلة من نسج الخيال المستمد من العقل الباطن (3).

ومن خلال هذه الآراء التي تتحدث عن شياطين الشعراء ،التي ذكرها الجاحظ وإن لم يؤمن بها وبما علق عليه علماء النفس ،نستطيع القول ان هذه الآراء ما هي إلا جزء لا يتجزأ من الانفعالات الداخلية و التعابير النفسية، التي تأثر بها المبدع أو الناقد نفسه نتـــيجة الظروف المحيطة ،أو الفكر الشائع في بعض الأوقات، وإن لم تكن فكرة النقد النفسي متبلورة بَعدُ .

1- سويف ،مصطفى:الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة،دار المعاف،القاهرة ،1969 ص190.

2- حميدة: شياطين الشعراء، ص101 .

3- عبد القادر، حامد :دراسات في علم النفس الأدبي، المطبعة النموذجية، القاهرة ،1949 ص 19-21 .

وفي الدليل على أنهم يقولون: " أن مع كلِّ شاعر شيطانا " . قول بشار : (1)

دعـــانــي شِنِقناقٌ إلى خَلــفِ بَكــرَةٍ   فــقلــتُ: اتــركَنّي فالتــفـــرُّدُ أحمـــدُ

يقولون:" أحمد في الشعر أن لا يكون لي عليه معين" . فقال أعشى سُليم يرد عليه :

إذا أَلِفَ الــجنّــيُّ قِردا مُــشَنّـــفَـــا   فــقــل لخنـــازيـــــر الجَـزيرةِ أبــشرِ

فجزع بشارٌ من ذلك جزعا شديدا ،لأنه كان يعلم مع تعزُّله أنَّ وجهه وجه قرد(2).

وفي أن مع كلِّ شاعر شيطانا يقول معه ، قول أبي النجم :(3)

إنـــي وكــلّ شاعــرٍ مــنَ البشَــر   شَيطـــانُـــهُ أُنثَـــى وشيــطانـــي ذَكَــر

وقالوا: قالت الجن:

وقَبــرُ حَــربٍ بمــكـــانٍ قفــر   وليـــس قُــربَ قَبرِ حَــربٍ قَبــرُ

ومن الدليل على ذلك، وعلى أن هذا البيت من أشعار الجن أن أحدا لا يستطيع أن ينشــدهما ثــلاث مــرات متصلة، لا يتتعتع فيها، وهو يستطيع أن يُنشِد أثقل شعر في الأرض وأشقَّه عشر مرات ولا يَتَتَعتَعُ. (4)

ولعل علة الأمر هنا هو تقارب مخارج الحروف، مما يجعل إعادة هذا البيت مرات عدة أمرا صعبا، لذلك نسبت العرب هذا البيت للجن لتعقيده، وصعوبة نطقه مكررا .

وقــال بعض الشعراء لرجل:" أنا أقول في كلِّ ساعةٍ قصيدةً، وأنت تَقرِضُها في كل شهرٍ ".فلم ذلك ؟ قال:" لأنِّي لا أقبل من شيطاني مثلَ الذي تقبَلُ من شيطانِك" (5) .

1- بشار بن برد:الديوان، شرح الشيخ محمد الطاهر أبن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، الجزائر ،ج4 1976 ،ص .

2- الجاحظ: الحيوان ج6، ص228 .

3- أبوالنجم، العجلي: الديوان، تحقيق سجيع جبيلي، دار صادر، بيروت، ط 1 ،1998 ، ص 86 .

4- الجاحظ: الحيوان ج6، ص208 .

5- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص206.

وعلماء النفس ينكرون أن يكون ذلك الشعر من وحي الشياطين، ويحاولون تفسيره على أنـــه مـــن المعيـــن الإنســـاني العجيب الذي يبدع فيفوق الشياطين والجن، وهو النفس الإنسانية (1) .

الأسباب التي دفعت العرب إلى نسبة الشعر لشياطين الشعراء كما يراه عبد الرزاق حميدة متعددة ومن أبرزها:(2)

1 - أن الشـــعر ظاهرة لا يستطيعها في كل الأمم والعصور إلا قليل ،وقد لا يعرفون سبب امتيازهم فيها، ولا أصل قدرتهم عليها ولكنهم ينطقون بهذا الكلام الذي يمتاز على غيره بنظام خاص في تركيبه(3) .

2 - أما هؤلاء الشعراء فكانوا في المنزلة السامية من قبائلهم في تلك العصور، كما كان الكهان ،وذلك لصلتهم بتلك الأرواح، وقدرتهم على ذلك القول الساحر الذي يُسمى شعرا

3 - مـــا يتركه الشعر في النفوس من أثر ايجابي، والاستمتاع بقراءته أو عند سماعه وتـــرديدهم لأبياته ذات الموسيقى والرنين ،فلأنه ممتع في ذاته، يعين على متاعب الحياة ،ويُسلي في الوحدة ،ويبعث السرور والنشوة، ويطرب السمع والفؤاد .

فـــلا عجب أن نسبت الأمم هذا الشعر إلى آلهة أو شياطين، وأن وجدوا في هذه النســـبة تعلـــيلا لمصـــدر هذا الشعر الذي لا يُحسنه غير نفر قليل، فـــي كل زمن وقبيل(4).

1- حميدة: شياطين الشعراء .ص 104 .

2- حميدة: شياطين الشعراء، ص 85 .

3- أنيس، إبراهيم : موسيقى الشعر، ،مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1965 ، ص 8 -11.

4- حميدة: شياطين الشعراء .ص 86 .

4.2 أثر صحيفة بشر بن المعتمر في النقد الأدبي عند العرب :

أورد بشـــر بن المعتمر كثيرا من الآراء النقدية في ثنايا صحيفته، حتى إن عدنان العلـــي أفـــرد لها كتابا اسمه (صحيفة بشر بن المعتمر وأثرها في النقد العربي القديم) حيث تناول مجموعة من القضايا النقدية التي تعرض لها بشر بن المعتمر، والأثر الذي تـــركه فيمـــن جـــاء بعده مـــن النقاد ومـــن هذه القضايا النقدية التي تناولها بشر بن المعتمر:(1)

1- دعوة الأديب ألا يُقبل على صنع عمله الأدبي إلا في الساعة التي يجد فيها نفسه قادرا على الإجادة ،فما يستطيعه المرء في ساعة لا يستطيعه في أخرى، وهذا مـــا نجده في قول بشر:" خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغك"(2). وقريب من هـــذا القـــول ما نلاحظه عند أبي تمام والذي يقول: " تخيَّر الأوقات وأنت قليل الهموم، صِفر من الغموم"(3). ولأهمية لحظة الإبداع هذه نجد ابن قتيبة يركز عليها أيضا حين يقول : " للشعر تارات يبعد فيها قريبه و يستصعب فيها ريضه ،وكذلك الكلام المنثور في الرسائل والمقامات والجوابات.. وللشعر أوقات يسرع فيها أتِيُّهُ. ويسمح فيها أبيه"(4) .

هذا التوافق في الآراء بين النقاد لم يكن مجرد صدفة لا بل على العكس من ذلك إنه حِس نقدي، وتأثير من السابق في اللاحق كما شاهدنا في هذا التوافق بين النقاد وما سنلاحظه في القضايا النقدية القادمة .

1- العلي: صحيفة بشر بن المعتمر، ص 29- 35 .

2- الجاحظ: البيان والتبيين، ص135 .

3- ابن رشيق، أبوعلي الحسن بن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ،تحقيق محمد قرقزان ،ج2 ،دار المعرفة ،بيروت، 1988، ص 750 .

4- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري: الشعر والشعراء، تحقيق:أحمد *شاكر*، ط1، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1950، ص35 .

2- الجمـــع بين أن يكون اللفظ رشيقا عذبا ،وفخما سهلا ،والمعنى ظاهرا مكشوفا، وقريـــبا معروفا، وهذا ما نجده في قول ابن المعتمر : " من أَرَاغَ معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف"(1) . يُنكر بشر بن المعتمر بضرورة مراعاة التوافق بين اللفظ والمعنى، وهذا ما أكده أبو تمام عندما قال : " وإذا أردت النسيب فاجعل اللفظ رشيقاً والمعنى رقيقاً.. فإذا أخذت في مديح سيدٍ ذي أيادٍ فأشهر مَنَاقَبه وأظهر مناسبه، وأبِنْ مَعَالِمَه(2).

أمـــا الجـــاحظ فقد صار على طريقة بشر بن المعتمر فقال: " لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء،وإذا كان مَوضعُ الحديـــث علـــى أنه مُضحِكٌ ومُلهٍ،وداخِلٌ في باب المزَاح والطِّيب، فاستعملتَ فيه الإعـــراب، انقلبَ عن جهته"(3). وبعد أن طرق الجاحظ هذه الفكرة جاء بعده ابن طباطـــبا والـــذي قال : " إيفاء كل معنى حظه من العبارة، وإلباسه ما يشاكله من الألفـــاظ " (4) .ولـــم يقف التأثير عند هذا الحد فحسب بل تعداه فجاء ابن رشيق، فصـــور اللفظ بالجسم والمعنى بالروح، وما في هذا التشبيه من دلالة على الترابط والـــتلاحم بينهما، فقال: " اللفظ جسم، وروحُه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم: يضعف بضعفه ويقوى بقوته " (5) .

1- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص136 .

2- ابن رشيق : العمدة، ج 2، ص750 .

3- الجاحظ: الحيوان ص39 .

4- ابـــن طباطـــبا، محمد بن أحمد العلوي: عيار الشعر، تحقيق طه الحاجري، ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، 1956، ص4 .

5- ابن رشيق: العمدة، ج2، ص252.

3- تجنب التوعر في اللفظ والتركيب، والابتعاد عن كل غريب ،لأن التوعر يؤدي إلـــى التعقيد والتعقيد يستهلك المعاني، من أجل ذلك قال ابن المعتمر: " إياك و التوعُّر فإن التوعُّر يُسلِمُك إلى التعقيد " (1) وقد نجد تأثرا في هذه القضية عند أبي تمام حين يقول: " إياك أن تَشِينَ شعرك بالألفاظ الرديئة " (2) فالتوعر في الألفاظ يعيب الكلام ويدفع الناس إلى الابتعاد عنه كما يقول الجاحظ: " أما أنا فلم أر قطُّ أمثلَ طريقةً في البلاغة من الكُتَّاب فإنهم قد التمَسُوا من الألفاظ ما لم يكن متوعَّراً وحشيًّا، ولا ساقطا سُوقيا "(3) .

يذكـــر الجاحظ الفكرة نفسها وإن غير فيها بعض الشيء، وهذا يدل على مدى التأثر الذي تأثر به الجاحظ وغيره من النقاد العرب عندما اطلعوا على صحيفة بشر بن المعتمر.

4- الــتلاؤم بيــن اللفظ والمعنى، مشيرا إلى ضرورة مراعاتهما، والتناسب بينهما وعـــدم التـــنافر بينهما وهذا نلحظه في قول ابن المعتمر: " وتجد اللفظة لم تقع موقعها و.. ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها، نافرة من موضوعها فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها " (4).

يُشير ابن المعتمر هنا إلى عملية الإبداع التي تُشبه البناء والصناعة والذي يحرص صاحبها على أن تكون في أكمل صورها وروعتها وهذا ما أكده أبن المدبر بقوله : " وارد الألفاظ في أماكنها، واعرضها على معانيها وقلبها على جميع وجوهها حتى

1- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص136 .

2- ابن رشيق: العمدة ج2، ص750 .

3- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص137 .

4- المصدر نفسه: ج1 ، ص 138 .

تقع موقعها ولا تجعلها قلقة نافرة، فمتى صارت كذلك هجنت الموضوع الذي أردت تحسينه " (1).

وبعد ذلك جاء ابن طباطبا الذي أكد بدوره على التوافق بين اللفظ والمعنى وعدم إكراه أحدهما على الأخر فقال: " وتكون الألفاظ منقادة لما تراد له غير مستكرهة، ولا متعبة لطيفة الموالج، سهلة المخارج " (2) .

5- الملاءمة بين الكلام وأحوال السامعين: والذي تعارف النقاد على تسميته بمطابقة الكــلام لمقتضى الحال، وفي هذا يقول بشر بن المعتمر: " أما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت وأما عند العامة إن كنت للعامة أردت.. إنما مدار الشرف علــى الصــواب، وإحــراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقــال... أن تُفهِــم العامة معاني الخاصة، وتكسُوها الألفاظَ الواسطة التي لا تَلطُف عن الدَّهماء، ولا تجفُو عن الأكفاء فأنت البليغ التام "(3).

وهذا التناسب بين القول وبين مَن يُقال له يدل على معرفة جيدة بالنواحي التركيبية لدى كل إنسان، وهذا ما أكده الجاحظ عندما أورد الفكرة نفسها في قوله: " لا ينبغي أن يكون المعنى غريبا وحشيّا إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا. فإن الوحشي من الكــلام يفهمــه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي. وكلام الناس أنفسِهم في طبقات كما أن الناس أنفسَهم في طبقات " (4).

وبعد أن تحدث الجاحظ عن هذه الفكرة جاء بعده ابن المدبر الذي أسهب في تأكيدها فقــال : " وخاطب كلا على قدرأبهته، وجلالته وعلوه وارتفاعه وتفطنه، وانتباهه،

1- علي، محمد كرد(تصنيف) : رسائل البلغاء، ط3، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1946، ص 240

2- ابن طباطبا: عيار الشعر، ص 4 .

3- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص136 .

4- المصدر نفسه: ج1، ص144 .

ولا تخاطبنَّ خاصّا بكلام عام، ولا عامًّا بكلام خاص " (1) .

فمخاطبة العامة لا تكون بألفاظ الخاصة ومخاطبة الملوك لا تكون بألفاظ العامة فلكل طبقة ما يُناسبها من القول لهذا قال ابن طباطبا: " ويحضر لبه (أي الشاعر) عند كل مخاطبة ووصف فيخاطب الملوك بما يستحقون من جليل المخاطبات، ويتوقى حطها عن مراتبها، وان يخلطها بالعامة .. ويعد لكل معنى ما يليق به ولكل طبقة ما يُشاكِلها " (2) .

6- لا يكون المعنى شريفا بكونه من معاني طبقة من الناس خاصة ،فكل في مجاله شريف ، ومدار الشرف موافقته حال المخاطب ،وذلك بأن يكون الكلام على قدر المعنى لا يزيد ولا ينقص حتى لا تختل الموازين انظر إلى قول ابن المعتمر : " حتى يقسمَ أقدارَ الكلام على أقدار المعاني " (3) .وكأن الأديب خياط يخيط الثياب على أقدار معينة كما يقول أبو تمام : " ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام " (4) . وهذا ما أكده الجاحظ عندما وصف ثمامة ابن أشرس فقال : " كان لفظه في وزن إشارته، ومعناه في طَبَقَة لفظه ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك " (5) .ثم جاء علي الجرجاني وأكد على هذه القضية مرة أخرى فقال:" أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني" (6).

1- كرد: رسائل البلغاء ، ص 229 .

2- ابن طباطبا: عيار الشعر، ص 5 .

3- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص139 .

4- ابن رشيق: العمدة، ج2، ص750 .

5- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص111 .

6- الجرجاني، أبو الحسن علي بن عبد العزيز: الوساطة بين المتني وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي،ط3، طبعة عيس البابي الحلبي، القاهرة، ص24.

ولـــم يـــتوقف الأمر عند هذا الحد فجاء أبو الطاهر البغدادي فقال : " أما ما يَصلح للكّـــتّاب أن تكـــون ألفاظهم غيرَ ناقصة المعاني ولا زائدة عليها كما وصِف بعضَ الكُتّاب فقال: كأن ألفاظه قوالب لمعانيه " (1) .

7- الشـــعر والكـــتابة موهبة، وللموهبة مستويات لذا ينبغي التأني في صنع العمل الأدبـــي وصياغته لمحدودي الموهبة، ممن لم تسمح له مقدرته بالجيد من أول خاطـــر إذ ينبغي التريث أو التأجيل وفي هذا يقول بشر بن المعتمر: " فإذا أنت تكلفتهما (الشعر والنثر) ولم تكن حاذقاً مطبوعاً، ولا محكماً لشانك.. عابَكَ من أنـــت اقـــل عيباً منه فإن ابتليت بأن تتكلف القول.. ولم تسمح لك الطباع.. فلا تعجـــل وعـــاوده عـــند نشاطك.. فانك لا تعدم الإجابة والمواتاة أن كانت هناك طبـــيعة أو جريـــت من الصناعة على عرق " (2). وكأن بشر بن المعتمر يـــتحدث لنا عن الاستعدادات الفطرية والنفسية لدى الأديب وما مدى الدُربة في صقل العمل الأدبي وإنشائه ،لذلك قال الجاحظ : " وفي الشعراء مَن لا يستطيع مجـــاوزةَ القصيد إلى الرَّجز، ومنهم مَن لا يستطيع مجاوزةَ الرّجز إلى القصيد ومنهم من يجمعهما " (3).

وهـــناك من يُحاول البلاغة دون أن يملك طبع البلاغة فحري به أن يتركها حتى لا يشـــينها كما يقول أبن المدبر : " وهذا كله إن جريت من البلاغة على عِرق وظهرت مـــنها علىٰ حظّ فأما إن كانت غير مُناسبة لطَبعك، ولا واقعةً شهوتُك عليها، فلا تُنض مطيَّتك في التماسها، ولا تتعب بذلك في ابتغائها. واصرف عَنانَك عنها " (4) .

1- كرد: رسائل البلغاء، ص405 .

2- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص138 .

3- المصدر نفسه: ج1، ص209 .

4- كرد: رسائل البلغاء، ص 240.

8- ترك العمل الأدبي خير من تكلفه والتحول إلى صناعة تناسب القدرة والاستعداد فلكل امرئ طبيعة خاصة في النزوع إلى عمل معين وهذا ما صرح به بشر بن المعـتر فـي قوله : " وأن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك فإنك لم تشتههِ ولم تنازِع إليه إلا وبينكما نسب، والشيء لا يحن إلا إلـى مـا يشـاكله " (1).ولكـل نفـس ميول تألفه وتسير فيه لذلك قال علي الجرجاني:"وإنما تألف النفسُ ما جانَسها، وتَقَبل الأقرب فالأقرب إلها "(2) .

الفصل الثالث

النقد الأدبي عند الجاحظ

1.3 مفهوم البلاغة عند الجاحظ :

يتناول الجاحظ في ثنايا مؤلفاته تعريف البلاغة عند الأمم الأخرى وعند علماء العربية، ونحن نقف عند هذه التعريفات التي انتشرت في أطراف متفرقة من كتب الجاحظ والذي يُعد مؤسس علم البلاغة العربية بما جمعه من آراء سابقيه من الأمم الأخرى، ومعاصريه من علماء الكلام وغيرهم، ما قام به من شرح أو تعليق أو إضافة إلى هذه التعريفات (3) .

ولعل ما تميز به الجاحظ في أسلوبه الاستطرادي، حين عرف البلاغة بطريقة سلسة تُشبه المناظرات الكلامية والمحاورات الأدبية، إذ عبر الجاحظ عنها بالسؤال والجواب، وما في ذلك من أثر في نفسية المتلقي والسامع، ومما جاء في هذه الطريقة قوله :

" قيل للفارسي: ما البلاغة ؟ قال : " معرفة الفَصل من الوصل " .

وقيل لليوناني: ما البلاغة ؟ قال :" تصحيح الأقسام، واختيار الكَلام " .

وقيل للرومي: ما البلاغة ؟ قال:" حسن الاقتضاب عند البداهة، والغَزارة يَومَ الإطالة ".

وقيل للهندي: ما البلاغة ؟ قال :" وُضوح الدّلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة " .

1- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص138 .

2- الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 29 .

3- انظر ضيف شوقي: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، 1965، 40.

وقال بعض أهل الهند : " جماع البلاغة البَصر بالحُجة، والمعرفةُ بمواضع الفرصة ". وسئل معمَّر، أبي الأشعث بَهلة الهندي فقال له: " ما البلاغةُ عندَ الهند" ؟ فقال بهلة : " عـندنا في ذلك صحيفةٌ مكتوبة، ولكن لا أُحسن ترجمتها لك، ولم أعالج هذه الصناعة فأثِقَ من نفسي بالقيام بخصائصها، وتلخيصِ لطائفِ معانيها "(1).

قال أبو الأشعث: " فلقِيتُ بتلك الصحيفة التّراجمةَ فإذا فيها :

" أول الـبلاغة اجتماع آلة البلاغة .وذلك أن يكون الخطيبُ رابطَ الجأْش، ساكنَ الجـوارح ،قليلَ اللّحظ ،متخيَّر اللّفظ، لا يكلِّم سَيِّدَ الأَمة بكلام الأمَة، ولا الملوكَ بكلام السُّـوقة .ويكون في قُواه فضلُ التصرُّف في كلِّ طبقة، ولا يدقِّق المعانيَ كلَّ التدقيق، ولايُنقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يُصفِّيَها كلَّ التّصفية، ولا يُهذّبَها غاية التهذيب، ولا يفعلَ ذلـك حتى يصادِفَ حكيماً، أو فيلسوفا عليما، وقد نَظَر في صناعة المنطق على جهة الصِّـناعة والمـبالغة، لا علـى جهـة الاعتراض والتصفُّح، وعلى وجه الاستطراف والتطرف " (2) .

هذه مجموعة من التعريفات التي حشدها الجاحظ لنا عن البلاغة عند الأمم الأخرى ممـا يُدلـل علـى سعة اطلاعه، ومعرفته بثقافات الأمم الأخرى، إذ تمكن من معرفة أقوالهـم وتعريفاتهم لفن البلاغة، ولكن الجاحظ لم يتوقف عند هذا الرصد وحسب، بل جاء مُعلقا ،ومبينا، وموضحا لهذا الفن الذي تعرض له كثيرا في كتابه (البيان والتبيين).

ومـن تعليقات الجاحظ على بلاغة الأمم الأخرى في معرض حديثه عن الخطابة والتي تُعدُ ضربا من البلاغة قوله: (3)

1- انظر الجاحظ :البيان والتبيين ج1، ص88 .

2- المصدر نفسه : ج1، ص92 .

3- المصدر نفسه: ج3، ص27 .

" وجملــة القــول أنّا لا نعرف الخطبَ إلا للعرب والفُرس .فأما الهندُ فإنما لهم معان مدونة، وكتُبٌ مخلّدة، لا تضاف إلى رجلٍ معروف، ولا إلى عالم موصوف، وإنما هي كتبٌ متوارثة، وآدابٌ على وجه الدَّهر سائرة مذكورة " .

"ولليونانيِّين فلسفة وصناعةُ منطق، وكان صاحبُ المنطقِ نفسهُ بكيّ اللسان، غيرَ موصوفٍ بالبيان ،مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه، وبخصائصه .وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطَقَ الناس ،ولم يذكروه بالخطابة، ولا بهذا الجنس من البلاغة، وفي الفُــرس خُطباء، إلا أن كلَّ كلامٍ للفُرس ،وكلَّ معنى للعجم، فإنما هو عن طُولِ فكرة وعــن اجتهاد رأي، وطُول خلوة، وعن مشاورة ومعاونة ،وعن طُولِ التفكُّر ودِراسة الكُتب، وحكايةِ الثاني علمَ الأول، وزيادةِ الثالث في علم الثاني، حتى اجتمعت ثمار تلك الفِكَر عند آخرهم "(1) .

وفــي هــذا الصدد يرى بعض الباحثين أن الجاحظ عندما أثبت أصالة البلاغة العربية للعرب كان مَدفوعا بالعصبية العربية للغضّ من الشعوبية ثم يراه بعضهم مضطربا في هــذه الناحية لا يفرغ من التدليل على أصالة البلاغة عند العرب حتى يقرر أن العرب أنفســهم عــرفوا بلاغة الأمم الأخرى كما رأينا، وردا على هذه المزاعم يقول الباحث محمــد هيثم: " أنني أرى في هذا الكلام جورا على الجاحظ لأن أبا عثمان إذا قال: إن العرب عرفوا بلاغة الأمم الأخرى وقرؤوها ،فهو لم يقل تأثروا بها أو أخذوها " (2) .

فقد قام الجاحظ بالمقارنة والمُفاضلة بين العرب وغيرهم من الأمم الأخرى،فالجاحظ والــذي وقــف مُدافعا عن العربية ،لم يأخذ الأمور على علاتها بل بين وفسر تفضيله للعرب على غيرهم فقال:

1- الجاحظ: البيان والتبيين: ج3، ص28 .

2- هيثم، محمد: البلاغة عند المعتزلة ، رسالة دكتوراة إشراف مزيد نعيم ، جامعة دمشق، كلية الآداب، 1993، ص86 .

" وكلُّ شئ للعرب فإنما هو بديهةٌ وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناةٌ ولا مكـابدة، ولا إجالةُ فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرفَ وهمَه إلى الكلام ،... وقد كـان العرب أُمِّيِّين لا يكتبون ،ومطبوعِين لا يتكلَّفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطَق، ومكانُه من البيان أرفع، وخطـباؤهم للكـلام أوجَد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفُّـظ، ويحتاجوا إلى تدارس، وليس هم كمن حفِظ علمَ غيره ،واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علِق بقُلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد، ولا تحفُّظ ولا طلب " (1).

وبعد أن تناولنا ما ذكره الجاحظ من تعريفات للأمم الأخرى عن البلاغة لا بدَّ لنا أن نستجلي هذا الأمر، وذلك ببيان السبب الذي دفع الجاحظ لذكر آراء الأمم الأخرى في البلاغة .

وهـنا لا بدَّ أن نُقر بانتماء الجاحظ للفكر الاعتزالي، والذي طلب أصحابه معرفة آراء الأمـم الأجنبـية في البيان والبلاغة، ولم يقصدوا بذلك إلى تمثلها واعتناقها، إنما أرادوا الموازنة بين آراء الأجانب وآراء العرب في بلاغة الكلام، محاولين أن يضعوا للبلاغة العربية قواعدها وقوانينها الذاتية ،ومن المعروف أن المعتزلة كانت تدافع عن الإسلام أمام أصحاب الملل، فطبيعي أن لا يُلقوا بعقولهم وأنفسهم في أحضان بلاغات أجنبية، وأن يحتاطوا أشد الاحتياط فيما يأخذونه من هذه البلاغات، وأن لا يأخذوا منها شـيئا إلا بعد درسه وفحصه وتبين مطابقته للبلاغة العربية. وبذلك يتضح لنا موقف الجـاحظ ،فهـو يعـرض أطرافا قليلة من آراء الأجانب، يُلقي بها في سيول من آراء العرب البلاغية، وملاحظاتهم البيانية، مُلتفتا من حين إلى حين إلى ملاحظات معاصريه وخاصة من المعتزلة(2) .

1- انظر الجاحظ: البيان والتبيين ج3، ص28 .

2- انظر ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص40.

ومن الطبيعي أن يكون اهتمام المعتزلة بالبلاغة منبعثا من طبيعة مذهبهم الذي قام فـــي كثير من الأحيان على الكلام المتمثل باللغة خطابةً وجدلا ومناظرة، ونظرتهم إلى اللغـــة من زاوية قدرتها على التأثير في المتلقي وإقناعه، اقتضت البحث عن الأسلوب الأمثل في التعبير، لذلك عُنوا بالبلاغة وسخّروا أساليبها لخدمة الغرض العقائدي، ولم تكـــن هذه البلاغة وسيلة من الوسائل التي وظفوها لإقناع الخصوم فحسب، بل وضعوا لها أصولا وبحثوا في خصائصها وجعلوها في كتب غدت المصدر الوحيد لعلم البلاغة العربية بعدهم أو كادت تكون كذلك (1)

وفـــي طـــريقة الجـــاحظ فـــي بحث فنون البلاغة، لا نجد اختلافا كثيرا بينه وبين معاصـــريه، فهـــو لم يفرد فصولا لبحث البلاغة كأبي هلال العسكري، وعبد القاهر، والسكاكي، وإنما نثرمسائلها نثرا في فصول كتبه المختلفة، لذلك لم يتضح له منهج في البلاغة، ولم تكن له خطة يسير عليها في تبويب الفنون (هذا كما يرى الكاتب) (2) .

ممـــا حدا بأبي هلال العسكري إلى أن يقول فيما قام به الجاحظ من جهد عظيم في خدمة البلاغة العربية في كتابه البيان والتبيين فيقول: " إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة ،وأقســـام البـــيان والفصـــاحة مبثوثة في تضاعيفه ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير، فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا علـــى جمـــيع ما يُحتاج إليه في صنعة الكلام :نثره ونظمه، من غير تقصير وإخلال، وإسهاب و إهذار" (3).

1- انظر هيثم: البلاغة عند المعتزلة ص71 .

2- انظر مطلوب أحمد: مناهج بلاغية، وكالة المطبوعات، الكويت ،1973، ص162 .

3- العسكري، أبو هلال :كتاب الصناعتين الكتابة والشعر،تحقيق علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل ،ط 1 ، دار إحياء الكتب العربية ،1952 ، ص 5 .

غير أن هذا القول لا يُعيب طريقة الجاحظ، بل يُعد اعترافا بفضله في بحث فنون البلاغة العربية وإن كان فيه تعريض بطريقة الجاحظ الأدبية ،إلا أننا نلتمس العذر له لأن طبيعة العصر الذي عاش فيه الجاحظ لم تعتبر ذلك عيبا، بالإضافة إلى أن الجاحظ عندما كتب هذه الكتب لم يقصرها على البلاغة دون غيرها من الموضوعات، فالجاحظ موسوعي المعرفة صاحب الاستطراد والمرح والفكاهة، يُطَوِّف بالقارئ في هذه المواضيع المختلفة دون أن يشعر القارئ بأي كلَلّ أو ملل أو سآمة

وحتى أسلوب أبي هلال العسكري هذا لم يخل من العيب، فهو كما يقول عنه داود سلوم في نظريته البلاغية، التي تُعد أول بادرة لجمود الذوق، وأن الفضل كل الفضل للجاحظ الذي كان الأساس الذي انطلقت منه هذه الدراسات النقدية (1) .

وأن ما جاء به العسكري لا يعدو أن يكون شرحا لما جاء به الجاحظ، أو جمعا للمتفرق عنده بعد أن أورد العسكري طرفا من تخليط بعض المحدثين في البلاغة (2).

ويرى بعضهم أن ما قام به العسكري هو جمع لما أورده الجاحظ في كتاباته حين عقب العسكري عليها تعقيبا ساير فيه "الجاحظ" من غير كبير أصالة منه على الرغم من ادعائه وافتخاره بواسع ثقافته وموافاة ذاكرته (3).

وفي الإشارة لما قام به الجاحظ من جهد عظيم يقول داود سلوم مؤكدا في ذلك على أهمية ما جاء به الجاحظ بالنسبة لعلم البلاغة العربية إذ يقول : " إني أرى أن الجاحظ هو المؤسس بحق لعلم البلاغة لأنه لم يكن جماعا لآراء أصحاب البلاغة كما يسميهم في عصره بل كان ناقدا لها لم يأخذها على علاتها، بالإضافة إلى هذا فهو ذو آراء قد تكون جديدة بالنسبة إلى علم ناشئ "(4) .

1- انظر سلوم داود: النقد المنهجي عند الجاحظ، ط 2، عالم الكتب، بغداد، 1986 ،ص 63 .

2- انظر نوفل سيد: البلاغة العربية في دور نشأتها، مكتبة النهضة المصرية،1948، ص173.

3- انظر سلامة إبراهيم : بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ط 2، مكتبة الأنجلو المصرية 1952، ص80.

4- سلوم: النقد المنهجي عند الجاحظ ، ص 93 .

ومن الجدير بالذكر القول أن الجاحظ الذي عُرف بأسلوب الاستطراد في كتاباته، يُعد علما من أعلام المتكلمين، إذ تناول أقوال كثير من علمائهم، وهم أصحاب الجدل واللغة والإفهام والإفحام في المناظرات الأدبية والدينية والسياسية أيضا، ولهذا شأن في بلاغة أسلوبهم إذ يُعد أقدم تعريف للبلاغة منسوبا لعلم من أعلامهم، وهو عمرو بن عبيد المعتزلي حين قال في البلاغة : "تخيُّر اللفظ ،في حُسن الإفهام "(1) .

ومما لاشك فيه أن هذا الفكر الاعتزالي قد ولد في رحم الخلافات المذهبية، فلا غرابة أن نرى اشتراكا أو انطلاقا للبلاغة من هذه الناحية الدينية، التي نجد بذورها عند مؤسس الفكر الاعتزالي عمرو بن عبيد عندما سُئلَ عن البلاغة فقال: " ما بَلَّغَ بك الجنّة ،وعَدلَ بك عن النّار، وما بصَّرك مواقع رُشدِك وعواقبَ غيِّك ".قال السائل: ليس هذا أريد .قال :" مَن لم يُحسِن أن يسكُتَ لم يُحسن أن يَستمِع، ومَن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول". فقال السائل :" ليس هذا أريد، وأخذ ابن عبيد يجيب والسائل يقول لست هذا أريد، إلى أن وصل إلى قوله : " فكأنَّك إنما تريد تخيُّر اللفظ ،في حسن الإفهام " قال السائل: نعم، قال:" إنك إن أُوتيتَ تقريرَ حُجة الله في عقول المكلَّفين، وتخفيفَ المؤُونة على المستمعين وتزيينَ تلك المعاني في قلوب المريدينَ، بالألفاظِ المستحسَنة في الآذان ،المقبولة عند الأذهان، رغبةً في سُرعة استجابتهم، وَنفي الشّواغلِ عن قلوبهم بالموعظة الحسنة ،على الكِتاب والسّنّة، كنتَ قد أُوتيتَ فَصلَ الخِطاب واستوجبتَ على الله جزيل الثواب "(2) .

وفي حديثنا عن البلاغة، وأثر المعتزلة فيها لابد من الإشارة إلى ما جاء به بشر بن المعتمر رأس المدرسة البشرية في صحيفته التي أسست للبلاغة العربية، وتركت أثرا كبيرا في النقد العربي (3) .

1- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص114 .

2- انظر الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص114 .

3- انظر الفصل الثاني: (صحيفة بشر بن المعتمر) .

وقال إسحاق بن حسان بن قوهي الخريمي :"لم يفسِّر البلاغةَ تفسيرَ ابن المقفع أحدٌ قَطُّ ". سُئِل ما البلاغة ؟ فقال : " البلاغة اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجرِي في وجوهٍ كثيرة .فمنها ما يكون في السكوت ،ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون سَجعا وخُطَبا، ومنها ما يكون رسائل " والإيجاز هو البلاغة (1) .

وقــال المفضــل بن محمد الضبي لأعرابي: ما البلاغة ؟ قال: "الإيجازُ في غير خَطَلٍ"(2).

فهــذا الأعرابــي يتحدث لنا عن قلة الكلام مع دقة الإفهام، والإيجاز هنا لا يعني الإخــلال بــالكلام ، وهذا ما نبه إليه الأصمعي حين قال : " البليغُ مَن طَّبقَ المفصل وأغناك عن المُفسِّر "(3).

وفي الإيجاز يسوق لنا الجاحظ هذه القصة، والتي حدثت مع معاوية بن أبي سفيان عــندما سأل صُحار بن عياش العبدي(4)فقال له معاوية: ما تعدُّون البلاغةَ فيكم؟ قال: الإيجــاز. قال له معاويةُ : وما الإيجاز؟ قال صُحار:"أن تُجيب فلا تُبطىء وتقولَ فلا تُخطــيء".فقــال له معاوية: "أو كذالك تقول يا صُحار"؟ قال صُحار:" أقِلني يا أمير المؤمنين، ألا تُبطئ ولا تخطئ". (5)

يقف الجاحظ من هذا التعريف موقف الشارح والناقد بعدما رواه مرة أخرى في كتاب البــيان والتبيين دون أن يعلق عليه، بل اكتفى بروايته فقط، فكأنه يشير إلى هذا الخبر إشارة تذكر القارئ بما فات، أوهو استدرك على ما فاته، أو أن السياق لم يسمح له بذلك فيقول:" لو أن سائلا سألك عن الإيجاز، فقلت : لا تخطئ ولا تبطئ، وبحضرتك خالد

1- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص115 .

2- المصدر نفسه : ج1، ص97 .

3- المصدر نفسه : ج1، ص106 .

4- انظر: الفصل الأول تفصيل الخبر .

5- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص96 .

ابن صفوان، لما عرَف بالبديهة وعندَ أولِ وهلة، أن قولك "لا تخطئ " متضمِّنٌ بالقول، وقولك "لا تبطئ "متضمِّن بالجواب. وهذا حديثٌ كما ترى آثروه ورَضوه، ولو أن قائلا قال لبعضنا ما الإيجاز ؟ لظننت أنه يقول الاختصار، وحقيقة الإيجاز هي الحذف بقدر ما لا يكون سببا لإغلاق المعنى " (1) .

ومـن التعريفات التي توقف عندها الجاحظ، قول العتّابيّ عندما سُئِلَ عن البلاغة، فقال :" كلُّ مَن أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبسَة ولا استعانة فهو بليغ، فإن أردتَ اللِّسانَ الذي يرُوق الألسنة ، ويفوق كلَّ خطيب، فإظهارُ ما غَمُض من الحقِّ، وتصويرُ الباطل في صورة الحقّ .فقال السائلُ :"قد عرفتُ الإعادة والحُبسة، فما الاستعانة ؟قال : "أما تَرَاه إذا تحدّثَ قال عِند مقاطع كلامه: ياهَنَاهُ ،ويالهذا، ويا هيَه، واسمَع مني واستمع إليَّ، وافهم عنّي، أولَست تفهمُ، أولَست تعقِل. فهذا كلُّه وما أشبهه عيٌّ وفساد" (2).

ولعـل العتابـي في بداية حديثه لا يَخص الإفهام وحده، بل لابدّ لهذا الإفهام من الاقتران بقلة الألفاظ ، وهذا ما ينطبق عليه مقولة خير الكلام ما قلّ ودلَّ .

وأما إعادة القول ففيه عيب يُدخل صاحبه في فضول الكلام، ونفور السامع منه، وهذا مـا نجده عند ابن السماك عندما جعل يتكلم وجاريةٌ له حيثُ تسمع كلامَه فلما انصرَفَ إليها قال لها:" كيف سمِعتِ كلامي"؟ قالت:" ما أحسنَه، لولا أنك تكثر ترداده".قال:" أردده حتى يفهمه من لم يفهمه". قالت: "إلى أن يَفهَمَه من لا يفهمه قد ملّه من فَهِمَه" (3).

يُعقـب الجـاحظ علـى قـول العتابـي بعـد أن استطرد كثيرا في الحديث عن البلاغة،والخطباء والبلغاء فيقول : " والعتابي حين زعم أن كل مَن أفهمك حاجتَه فهو بلـيغٌ لـم يَعنِ أن كلَّ مَن أفهمَنا مِن معاشر المُولَّدين والبلديِّين قَصدَه ومعناه، بالكلام الملحـون، والمعـدول عن جهته، والمصروف عن حقّه، أنّه محكوم له بالبلاغة كيف

1- الجاحظ: الحيوان ج1، ص90 .

2- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص113 .

3- المصدر نفسه: ج1، ص104 .

كـــان، بعد أن نكون قد فهِمنا عنه ... وإنما عنى العتّابي إفهامَك العربَ حاجتَك على مَجاري كلام العربِ الفُصَحاء " (1).

وهذا التعقيب والاستدراك يدل على حرص الجاحظ على إيصال المعلومة الكاملة والوافــية للقارئ ،فلا يبقى فيها لُبس ولا غموض، فالجاحظ يتدخل ويبدي رأيه عندما يستلزم الأمر ذلك التدخل ، وإن أخذه الحديث بعيدا عن الموضوع ،كما شاهدنا قي قول العتابي .

وبعــد أن طــاف الجاحظ بالقارئ في تعاريف البلاغة وتوقف عند بعضها بالنقد والشرح ،كان لابدّ للجاحظ أن يفضل ويُرجح تعريفا تطمئن به نفسه للبلاغة العربية، وهــذا مـــا نُحسه في قوله : " قال بعضهم – وهو مِن أحسن ما اجتبَيناه ودَوّناه – لا يكون الكلامُ يستحق أسم البلاغة حتّى يُسابق معناه لفظَه ،ولفظُهُ معناه، فلا يكونَ لفظُه إلى سمعك أسبَقَ من معناه إلى قلبك "(2) .

وقال الإمام إبراهيم بن محمد بن علي بن العباس: " يكفي من حَظِّ البلاغة أن لا يُؤتَى السَّامعُ من سوء إفهام النَّاطق ،ولا يُؤتَى النَّاطقُ من سوء فهم السَّامع " .

وفـــي هـــذا القول إشارة لتوصيل وإيصال الفكرة بشكل صحيح ينتفي معه الغموض والإبهـــام فـــي القول وفي هذا التعريف ما استجاده الجاحظ وفضله، لذا قال فيه " أما أنا أستحسنُ هذا القَولَ جدا "(3).

وهذا القول دليل على تفضيل الجاحظ لهذا التعريف على غيره من التعريفات الكثيرة للبلاغة .

نلاحظ من خلال هذه الأقوال أن الجاحظ توقف كثيرا عند تعريف البلاغة ،ولا غرابة في هذا لأنه يُعد من أعلام البلاغة العربية ومن تتبع هذه الأقوال نجد أن طريقة الجاحظ في إقرار الفكرة لدى المُتلقي متسلسلة، فقد بدأ بأقوال الأمم الأخرى، ثم عرج على أقوال بعض الأشـــخاص إلا أنـــه توقــف كثيرا عند أقوال علماء المعتزلة ،ولا غرابة في هذا إذ إنهم

1- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص161 .

2- المصدر نفسه : ج1، ص115 .

3- المصدر نفسه : ج1، ص87 .

أصحاب البلاغة، وجماعتها ، والجاحظ في هذا كله لم يكن متفرجا وناقلا، بل كان ناقدا وشارحا ومرجحا في هذه الأقوال.

أما طريقة الجاحظ في عرض تعريف البلاغة، فقد جاءت على شكل المناظرات والمساجلات، فهي سؤال يتلوه جواب ممن يُحيط بأطراف القضية، ونحن نعلم بأن طريقة السؤال تجذب السامع والقارئ إليها ،خصوصا إن كانت الكتابة تشهد استطرادات طويلة كما هو الحال عند الجاحظ ،لذلك راوح الجاحظ في طرح الأسئلة على أهل هذه الصنعة، وإن لم يكن هو السائل في كثير من الأوقات، فقد يأتي السؤال ليقع الخبر موقعا حَسنا من نفس السامع، فيتبناه ،وقد يأتي السؤال لطرد ما ينتاب السامع أو القارئ من السآمة والملل .

2.3 منهج الجاحظ في نقد الشعر :

فقد ظهر الحِس النقدي لدى الجاحظ في طريقة طرحه لقضية الشعر والشعراء، إذ يُعرف الشعر بقوله:"إنما الشعر صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير"(1). وبعد أن عرف الجاحظ الشعر لم يتوقف عند هذا الحد فحسب بل تحدث عن ميلاده، وأعلامه فقال : " وأما الشعر فحديثُ الميلاد، صغير السنّ ،أولُ مَن نَهَج سبيلَه، وسَّهل الطريق إليه: امرؤُ القيس بن حُجر، ومُهلهل بن ربيعة، ومما يدل على حداثة الشعر(2)، قول امرئ القيس بن حُجر :

إنَّ بنّي عَوفٍ ابتَنَوا حَسَباً ضَيَّعَهُ الدُّخلُون إذ غَدَرُوا
أدَّوا إلى جارهم خفارته ولم يَضِع بالمغيب مَن نَصَرُوا
لا حِميَريٌّ وَفَىَّ ولا عُدُسٌ ولا استُ عَيرٍ يَحُكها الثَّفَرُ
لكِن عُوَيرٌ وَفَىَّ بذمَّتِه لا قِصَرٌ عابَهُ ولا عَوَرُ (3)

1- الجاحظ: الحيوان ج3، ص132.

2- المصدر نفسه: ج1، ص74.

3- امرؤ القيس: الديوان ، ص 514 .

يعلق الجاحظ على هذه الأبيات مستدلا بها على قوله:" فانظر، كم كان عمرُ زُرارةَ ! وكم كان بين موت زُرارة ومولد النبي عليه الصلاة والسلام ؟! وجدناه ما بين خمسين ومائــةَ عام أو قل مائتي عام " (1) أي أن أقدم شعر عربي لا يبعد عهده عن الإسلام كثيرا.

فالجاحظ الذي عُرف بحسه النقدي يعرض في حديثه هذا لميلاد الشعر، مُدلِلا على هــذه الحداثــة من الشعر نفسه كما شاهدنا، لذلك لم يكن من الغريب على الجاحظ أن يتــناول الأبــيات الشــعرية في كتبه فحسب، بل تناولها وعلق عليها، ونقدها وشرحها وفســرها في كثير من الأوقات مما ميز أسلوبه عن غيره، وهذا ما سنتعرف عليه من خلال حديثنا عن العرض الذي قام به الجاحظ .

وقــد توقف الحاحظ عند بيان مقصد كلِّ طائف من إيراد هذه الأشعار بقوله : " ولم أرَ غايــة النحوييِّــن إلا كلَّ شعرٍ فيه إعراب، ولم أرَ غايةَ رواة الأشعار إلا كلَّ شعرٍ فيه غريبٌ أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج، ولم أرَ غايةَ رواةِ الأخبار إلا كلَّ شعرٍ فــيه الشــاهد والمثل ،ورأيت عامتهم – فقد طالت مشاهدتي لهم – لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيَّرة، والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبةِ والمخارج السَّهلة .... "(2) .

أمــا دافع الجاحظ للتركيز على هذه الأبيات الشعرية، والاستفاضة في الحديث عنها، فنجده في قوله:"وفي بيوت الشِّعر الأمثال والأوابد، ومنها الشَّواهد، ومنها الشوارد" (3).

ومن تعليقات الجاحظ على معاني المفردات في الأبيات الشعرية قوله : " ويزعم من لا علــم له ، أن الخنذيذ في الخيل هو الخصيُّ، وكيف يكون ذلك كذلك مع قول خفاف بن ندبة:(4)

1- الجاحظ: الحيوان ج1، ص74 .

2- الجاحظ: البيان والتبيين ج4، ص24 .

3- المصدر نفسه: ج2، ص9 .

4- ينسبه الجاحظ في البيان والتبيين ،لخفاف بن عبد قيس البرجمي ، ج2، ص11.

وخنـــاذيــذ خصيــة وفحــولا

يقول الجاحظ: " وأما الخنذيذ فهو الكريم التامُّ ،وربَّما وصفوا به الرجل ،وقد قال كثير :

على كلّ خنذيـذِ الضُّحى مُتمطِّــرٍ وخيفــانةٍ قد هــذَّبَ الجري آلهَــا (1)

ويستدل الجاحظ بالشعر فيقول :" إنهم ربما جعلوا الرجلَ إذا ما مدحوه خنذيذا "، كقول بعض القيسيين، من قيس بن ثعلبة : (2)

دعوتُ بني سعد إليَّ فشمَّرت خناذيذ مِن سعدٍ طِوالُ السواعدِ

وفي موضع أخر يستكمل الجاحظ الخبر بقوله: " والشعراء عندهم أربع طبقات، فأولهم: الفحــل الخــنذيذ، والخنذيذ هو التام، قال الأصمعي: قال رؤبة: " الفُحولة هم الرواة " ودون الفحل الخنذيذ الشاعرُ المُفلِقُ، ودون ذلك الشاعرُ فقط، والرابع الشَّعرُور " (3) . وفــي طــرق الشعراء لمعانيهم وألفاظهم يقول الجاحظ: " وقد نجدُ الرجل ينقف شحم الحــنظل ، وبيــنه وبين صاحبه مسافة متوسِّطة البعد ،فيجد في حلقه مرارة الحنظل ،وناقف الحنظل لا تزال عينه تهمُل ما دام ينقفه، لذلك قال ابن حُمام، قال أبو عبيدة :

كأنِّــي غَــدَاةَ البَيــنِ يــومَ تَحمَّلوا لَــدَى سَمُراتِ الحــيِّ ناقفُ حَنظــل (4)

يعلق الجاحظ على هذا البيت قائلا : " إنه يُخبر عن بكائه ،ويصف دُرُورَ دَمعتهِ في إثر الحمول فشبَّه نفسه بناقف الحنظل، وقد ذكره امرؤ القيس في قوله :

عُوجَا على الطَّــلَلِ القديم لعَلّنــا نَبكِي الدِّيارَ كمــا بكى ابنُ حُمــامِ (5)

1- كثير عزة: الديوان ،شرح أحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1971، ص82 .

2- هذه النسبة وُجدت عند الجاحظ في كتاب الحيوان وفي كتاب الجاحظ البيان والتبيين نُسب البيت للعبسي انظر الجاحظ: الحيوان1 / 134.

3- الجاحظ: البيان والتبيين ج2، ص9 .

4- امرؤ القيس: الديوان ،المجلد الأول ص171 .

5- امرؤ القيس: الديوان: المجلد الثاني، ص474 .والبيت في الديوان :

عُوجا على الطَّلَل المُحيلِ لَعَلّنَا نَبكي الديار كما بكى ابن جذامِ

يعقب الجاحظ على هذا البيت بقوله: "إنهم يزعمون أن ابن حُمام هذا هو أول من بكى الديار"(1)

ولعـــل الجاحظ غير قاطع بذلك الزعم، إذ لا بد أن يشير إلى استخدامات سابقة لهذه العبارة .

ومـــن الأبيات التي توقف الجاحظ عندها بالشرح والتعقيب قول امرأة في زوجها وهي ترقّص ابنا لها منه :

وُهــبـتُـــه مـــن سَلفَــعٍ أَفُــوك　　　ســراحٍ إلــى جــاراتهــا ضحــوكِ

ومـــن هِبـلٍّ قَـد عَسـاَ حَنِيـكِ　　　أشهــَبَ ذي رأسٍ كــرأسِ الـدِّيـكِ (2)

يقول الجاحظ : " أما قولها أشهب ،فإنّما تريد أنّ شعرَ جسده قد ابيضَّ من الكِبَر وإنَّما جعلت شعرَ رأسهِ كرأس الديك لأنه كان مخضوبَ الرأس واللِّحية بالحُمرة، ثُمَّ لم ترضَ له بشبه الرجال من هذا الوجه حتى جعلت رأسه أفرق، وذلك شيءٌ من الجمال والوقار والفضل، لا يتَهيَّأ للناس مع كمالهم وتمامهم إلا بالتكلف والاحتيال فيه " (3) .

وفـــي هذا القول مقدرة عالية تدلُّ على شخصية الجاحظ ليس في الجانب الأدبي وحسب بل في الجانب الاجتماعي والنفسي أيضا.

1- الجاحظ: الحيوان ج2، ص139 .

2- ابن طيفور، أبو الفضل أبي طاهر الخراساني: بلاغات النساء، تحقيق عبد الحميد هنداوي دار الفضيلة ،القاهرة ،1997، ص199 . و أوفوك :كذوب . وهبل :أي ضخمة مسنة ،وعسا: أي كبر، وحنيك: مجربة لحوادث الأيام. وهذا الشعر يرد على أنه رد من الزوج على زوجته.

3 - الجاحظ: الحيوان ج2، ص239 .

وفـــي تفضيل الشعر في بعض الموضوعات قوله : " وليس في جَودة الظَّنِّ بيتُ شعرٍ أحسن من بيت بلعاء بن قيس" (1).

وأبغـــي صـــواب الظَّـــنِّ أعلم أنَّـــه إذا طاشَ ظنّ المـــرء طاشـــت مقـــادره

وقال تعالى : " ولقد صدَّق عليهم إبليسُ ظنَّه فاتبعوهُ " (2) .

وفي المقارنة بين الشعراء، وتفرد بعض الشعراء ببعض المعاني،واستحالتها على غيرهم قول بشار:

كـــأن مثـــارَ النَّقـــع فـــوقَ أرؤُسِهِـــم سُقُفا كواكبـــهُ البيـــضُ المَبَاتـــيرُ (3)

وقال عمرو بن كلثوم :

تَبنـــي سنابكُهُـــم مـــن فـــوقِ أرؤسِهِـــم سَـــقفا كواكبُـــهُ البيـــضُ المباتـــيرُ (4)

يُعلق الجاحظ على هذين البيتين بقوله : " وهذا المعنى قد غلب عليه بشار، كما غلب عنترة على قوله :

فـــتَرى الذُّبـــابَ بهـــا يغنِّـــي وحـــدَه هَزِجـــاً كفعـــل الشَّـــارِبِ المترنِّـــم

غَـــرِداً يـــحُـــكُّ ذِراعـــه بـــذِرَاعـــهِ فِعـــلَ المكبِّ على الزِّنَـــادِ الأجـــذمِ (5)

يعقـــب الجـــاحظ على هذين البيتين بقوله: " لو أنَّ امرأ القيس عَرَضَ في هذا المعنى لعنترة لافتَضَح " وقال: "ولم أسمع في هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة"(6).

1- الجاحظ: الحيوان ج3، ص60.

2- سورة: سبأ، آية 20.

3- بشار بن برد: الديوان ،تحقيق ،شرح الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، ج 4، ص 73 . والشطر الأول هو : كأنما النقعُ يوما فوق أرؤُسِهِم .

4- الحيوان ج3، ص127 .

5- عنترة: الديوان تحقيق محمد سعيد مولوي، ط 2، المكتب الإسلامي ،بيروت، 1983، 197.

6- الجاحظ: الحيوان ج3، ص127 ، 312 .

ففي هذا القول إشارة لقضية السرقات الشعرية، التي تنبه الجاحظ إليها قبل كثير من الدارسين .

فالجاحظ يروي هذين البيتين في معرض نقده فيقول: "ولا يعلم في الأرض شاعرٌ تَقَدَّمَ في تشبيهٍ مُصيبٍ تامّ، وفي معنى غريبٍ عجيب، أو في معنى شريف كريم، أو في بديعٍ مُختَرع، إلا وكلُّ مَن جاءَ من الشُّعراءِ من بَعدِه أو معه، إن هو لم يعدُ على لفظه فيســرقَ بعضه أو يدعيَه بأسره ،فإنه لا يَدعُ أن يستعينَ بالمعنى، ويجعلَ نفسه شريكا فيه، كالمعنى الذي تتنازعُه الشعراء فتختلفُ ألفاظهم، و أعاريضُ أشعارهِم، ولا يكونُ أحدٌ منهم أحقَّ بذلك المعنى من صاحبه(1)

وفي قضية اللفظ والمعنى يوجه الجاحظ نقدا قاسيا لأبي عمرو الشيباني حيث قال: " وقد بلــغ من استحسانه لهذين البيتين، ونحن في المسجد يوم الجمعة، أن كلَّف رجلا حتى أحضر دواة وقرطاسا حتى كتبهما له، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبــدا، ولــولا أن أدخِلَ في الحكم بعض الفتك لزعمت أن ابنه لا يقول شعراً أبدا "(2) وهما قوله :

لا تحسِبــنَّ المــوتَ مَوتَ البِلَـــى ... فإنّمـــا المَــوتُ سُــؤالُ الرِّجـــالِ

كــلاهــمــا مــوتٌ ولـــكِــنَّ ذا ... أفظَــعَ مــن ذاكَ لــذلِّ السُّــؤال

يعقــب الجــاحظ علـــى هذين البيتين فيقول: " لقد ذهب الشّيخُ إلى استحسان المعنى، والمعاني مطروحةٌ في الطريق يعرفها العجميُّ والعربيُّ، والبدويُّ والقرَوِي، والمدنيّ، وإنما الشأن في إقامة الوزن ،وتخيُّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحَّة الطّــبع وجــودَة السَّــبك فإنمـــا الشعر صناعةٌ، وضرب مـــن النسيج، وجنس مـــن التصوير"(3).

1- الجاحظ: الحيوان: ج3، ص312 .

2- المصدر نفسه: ج3، ص131 .

3- المصدر نفسه: ج3، ص131 .

وهنا يضع الجاحظ شروطا عامة لجودة الشعر، وقبوله فلا يكفي أن يكون المعنى جميلا حتى نحكم بجودته، وهنا قد يُعاب على الجاحظ تعصبه للمعنى، إلا أن الجاحظ لم يكن متعصبا للمعنى على حساب اللفظ كما يظن بعضهم، وذلك من خلال إشارته غير المباشـــرة للعـــناية بالألفـــاظ في قوله : " وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير، اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحَّة الطّبع وجودَة السَّبك "(1)

وهذه الأمور لا تكون في المعاني بل هي خصائص للألفاظ كما نرى .

وفـــي هـــذا يقول بدوي طبانة :"لقد فتح الجاحظ باب القول في الألفاظ والمعاني ،وتشـــيع للفـــظ ،وآثره بوجوب العناية، وبين أن التفاضل بين الأدباء ميدانه الصناعة ولكـــنه عـــالج تلك الصناعة بقدر، وكان كلامه أشبه بالنظريات العامة التي تحتاج إلى التجلـــية، وشرح وسائل الصنعة، وأسباب الإجادة فيها ، ووضع الحدود الظاهرة التي تبين معالم كل نوع من أنواعها ،وسوق الشواهد التي تجعل المبهم واضحا، وتزيد القول بـــيانا، وفي كلام الجاحظ هذا ودعوته إلى اللفظ، أو البيان دعوةً إلى مذهب جديد في تأليف الأدب وفي نقده وهو (المذهب البياني) الذي يهدف إلى التأنق في رسم الصورة الأدبية، ويبحث عن الجديد الذي تزدان به تلك الصورة، وتزداد بهاء وجمالا ووضوحا، حـــتى يكـــون لأدب معاصـــريه ميزة يمتاز بها من أدب سابقيهم من الجاهليين الذين اســـتنفذوا المعانـــي الفخمة التي تهز القلوب، وتثير المشاعر، فلم يبق للمحدثين إلا أن يجدوا في الصياغة، وأن يخرجوا من دائرة التقاليد القديمة "(2) .

وقد قال بعض الشعراء(3) يهجو حارثة بن بد الغداني :

زعَـمت غُذانَـةُ أنَّ فيهـا سيِّـدا ضخمـا يُوَارِيـهِ جنـاحُ الجُنـدُبِ

1- الجاحظ: الحيوان ج3، ص131.

2- طبانة، بدوي: دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية حتى نهاية القرن الثالث، ط4 ،مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1965، ص208 .

3- يُنسب البيت للأبيرد الرياحي، انظر الجاحظ الحيوان : ج6، ص351 .

وزعم أناسٌ أنه قال :

يُــرويهِ ما يُــروى الذُّبــابَ فينتشــي   سُكــرا ،وتُشبِعُــه كُــراعُ الأرنــب

وقد قيل: لا يجوز أن يقول : " يرويه ما يروي الذباب " و " يواريه جناحُ الجندب " ثم يقول : "ويشبعه كراع الأرنب " (1) ولعل في هذا استحالة للمعنى .

وفــي تعليق الجاحظ على هذا الأقوال دليل على موسوعيته، واطلاعه الواسع على عالم الحيوان وصفاته إذ يقول: " إنما ذكر كُراعَ الأرنب، لأن يد الأرنب قصيرة، ولذلك تســرع فــي الصُّــعود ولا يلحقها مــن الكلاب إلا كلُّ قصير اليد، وذلك محمودٌ من الكلب"(2).

وقال أبو عدنان :

فأدخَــلَ يــوما كفَّــهُ جُحر أســوَدَ   فشَرشَــرَهُ بالنَّهــش حتــى تشرشَــرَا

ولــو مــسّ حرفي حجَــرما تَقَصَّــدَا   وبالشَّــمِّ لا بالســمِّ مــنــه تقــصــدا

يتــناول الجــاحظ هذا البيت منطلقا من معرفته الجيدة بعالم الحيوانات، إذ لم يكن ناقدا وكاتــبا فحسب ،بل كان عالما بأحوال الحيوانات أيضا وهو يقول: " فقَدَّم الأسوَدَ على الأفعى، وهذا لا يقوله مَن يَعرف مقدار سُمِّ الحيات " (3) .

وهذا القول يعني أن الأفعى أشد ضررا من الأسود .

وقال حسان بن ثابت:

لَعَمــرُكَ إنَّ إلّــكَ مِــن قريــش   كإلِّ السّقــبِ مــن رَألِ النّــعــامِ (4)

1- الجاحظ: الحيوان ج3، ص398 .

2- المصدر نفسه: ج3، ص399 .

3- المصدر نفسه: ج4، ص304 .

4- حسان بن ثابت: شرح الديوان، ضبط عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1981، ص460 .

فقد تعرض أناس لهذا البيت بالنقد، وظنُّوا أنَّه أراد التبعيد، فذكر شيئين قد تشابها من وجوه، ويرد الجاحظ عليهم مستندا إلى علمه بعالم الحيوان قائلا: " وحسانُ لم يُرد هذا، وإنما أراد ضَعفَ نَسبه في قُريش، وأنَّه حينَ وَجَدَ أدنى نَسب انتحل ذلك النَّسب "(1) .

وفي معرفة الجاحظ بعالم الحيوان تعليقه على اعتداد من ادعى للنّعام الصّمَمَ بقول عَلقَمة :

فُوهُ كَشَقِّ العَصا لأيا تَبَيَّنُهُ أسَكُّ ما يَسمَعُ الأصواتَ مَصلومُ (2)

يوجه الجاحظ نقده لهذا البيت قائلا: " ولا يصلح أن تكون "ما" في موضع الذي ذَكّرَ لأن ذلك يصير كقول القائل: التمر حلو، والثَّلج بارد، والنّار حارَّة، ولا يحتاج إلى أن يُخبر أنّ الذي يُسمَعُ هذا الصَّوتُ، لأنه لا مسموعَ إلا الصَّوت "(3) .

وفي موضع أخر يقول الهذليُّ :

تَسَمَّعَ بِالنُّهَى النَّعَامُ المُشَرَّدُ

يعقب الجاحظ قائلا: "والشارد النافر عنك لا يوصف بالفهم، ولو قال: تسمع بالنُّهى، وسكت كان أبلغَ فيما يريد " (4). وهو كما قال الله تعالى: "ولا تُسمِعُ الصمَّ الدُّعَاءَ إذا ولَّوا مُدبِرِينَ "(5)

وقال الحارث بن حلزةَ: قولا يدلُّ على أن النعام تسمع :

آنسَتْ نَبأَةً وأَفزَعَها القُنَّاصُ عَصرا وقد دنا الإمساء

1- الجاحظ :الحيوان ج4، ص361 .

2- علقمة الفحل :الديوان ،شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق، لطفي الصقال، درية الخطيب، و راجعه ، فخر الدين قباوة، ط 1، دار الكتاب العربي، حلب، 1969 ، ص59 .

3- الجاحظ: الحيوان ج4، ص383 .

4- المصدر نفسه : ج4، ص386 .

5- سورة النمل: آية 80 . وسورة الروم: آية 52 .

فتـــرى خَلفَهُـــنَّ مِن سُـــرعَةَ المشـــ   ي مَـــنــبِتـــا كـــأنَّـــهُ إهـــبـــاءُ (1)

يعلق الجاحظ على هذين البيتين قائلا : " ولو قال : " أفزَعَها القنّاصُ " ولم يقل : " آنست نبأة " – والنَّبأة الصوت – لكان لَكُم في ذلك مَقال " (2) .

وفي تثبت الجاحظ من معاني المفردات الشعرية ومعانيها تثبته من قول يحيى الأغر عندما قال:

كَضَـــربِ القُيـــونِ سَبِـــيك الحديـــدِ   يـــومَ الجنائـــب ضربـــا وكَيـــدا

يقول الجاحظ: " فلم أعرفه، فسألتُ بعضَ الصَّياقلة فقال: نعم، هذا بَيِّنٌ معروف، إذا أَخرَجنا الحديدةَ من الكِيرِ في يومِ شَمَال، واحتاجت في القطع إلى مائة ضربةٍ، احتاجَت في قطعها يومَ الجنُوب إلى أكثر من ذلك، وإلى أشدّ من ذلك الضَّرب، لأنّ الشمالَ يُيَبِّسُ ويقصِف، والجنوب يرطِّب ويلدِّن " (3) .

فالجاحظ الذي عُرف بعلمه الغزير لا يتوانى في السؤال عما لا يعرف، بقصد الدقة والتثبت ، والاحاطة بما يروي أيضا .

وقـــد تضـــيف العـــرب علـــى بعض الحيوانات صفة النطق والإخبار كما في قول الفرزدق:

وصادقـــةٍ قـــد خَبـــرَّتْ، ما بعَثتها   طُرُوقا، وباقـــي الليل في الأرض مُسدِفُ(4)

يقول الجاحظ عنه: " فجعلها مُخبرة، وجعل خبرها صدقا، حين زعم أنها قطاً، وإن كانت القطاة لم تَرُم ذلك " وفي قول الجاحظ هذا تعقيب جميل إلا أنه لم يقف عند هذا

1- الحارث بن حلزة،وعمرو بن كلثوم، الديوان شرح مجيد طراد، دارالجيل165.ويرد البيت الثاني برواية أخرى هي:

فتـــرى خَلفهـــا مـــن الرَّجـــع والوَقـــ   ع أيهما كأنـــَّه إهبـــاء

2- الجاحظ: الحيوان ج4، ص389.

3- المصدر نفسه ج4، ص407 .

4 – لم أجد هذا الشعر في ديوانه .

الحدّ فحسب بل أضاف إضافة غاية في الدقة عندما قال: " والعرب تتوسع في كلامها، وبأي شيء تفاهَم الناسُ فهو بيانٌ إلا أن بعضه أحسنُ من بعض " (1) .

وفي اختلاف أثمان السنور، قال صاحب الكلب :السنور يَسوى في صغره دِرهما، فإذا كبر لم يسوَ شيئا، وقال بشار :

فـإنك فيمـا قد أتيـتَ مـن الخَنَـا سَفاهـا ،ومـا قـد زدتَ فيـه بإفـراطِ
كسِنورِ عبـدِ اللـه بِيـعَ بدرهـمٍ صغيرا فـلما شـبَّ بيـع بقـيـراطِ (2)

يتوقف الجاحظ في هذين البيتين عند قضيتين هما: مدى شاعرية قائلهما، ونسبتهما لـه، فـيقول: " وصـاحب هذا الشعر، لو غَبرَ مع امرئ القيس بن حُجر، والنابغةِ الذُّبياني، وزهير بن أبي سُلمى ثم مع جرير والفرزدق والراعي والأخطل، ثم بشار وابن هَرمة، وابن أبي عُيينة، ويحيى بن نوفل ،وأبي يعقوب الأعور، ألف سنة – لما قال بيتا واحدا مرضيا أبدا – وقد يضافُ هذا الشعر إلى بشار، وهو باطل "(3) .

وقال الراعي :

أمَّـا الفقيـرُ الذي كَانـت حَلُوبَتُـهُ وَفـقَ العيـالِ فَلم يُتـرك لهُ سَبَـدُ (4)

يعلق الجاحظ هلى هذا البيت قائلا: " لو أنه قال: لم يُترك له لَبَد، وقال: ما ينمي له لَبَد لقام الوزنُ ،ولكان له معنى، فدلَّ ذلك على أنه إنما أراد تقديم المقدَّم " (5) .

1- الجاحظ: الحيوان ج5، ص287 .

2- بشار بن برد :الديوان ،مجلد الرابع ،112 . والبيت الأول لم أجده ،وقد أورد هذا البيت
فأنـتَ بمـا تـزداد من طـول رفعـةٍ وتنقُـصُ مـن جَـدٍّ لـذاك بإفـراطِ

3- الجاحظ: الحيوان ج5، ص315 .

4- الراعي النميري: الديوان، جمعه وحققه راينهرت فايثرت، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، 1980، ص64 .

5- الجاحظ: الحيوان ج5، ص523 .

ويزعم بعضهم أن أسنان الذئب ممطُولة في فكيّيه وأنشد :

أنيــابــه مَمطــولــةٌ في فَــكّيــن

يقول الجاحظ: " ليس في هذا الشعر دليل على ما قال، لأنَّ الشاعر يشبع الصفةَ إذا مَدَح أو هَجا، وقد يجوز أن يكون ما قال حقا " (1) .

وقد أكثر الشعراء في الحديث عن سباع الطير التي تتبع العساكر طمعا في القتلى من الجيشين، وقد قال مسلم بن الوليد بن يزيد في ذلك :

يَكسو السُّيوفَ نفوس النَّاكثيــن بــه ويَجعَــلُ الهــامَ تيجــان القَنَــا الذُّبُــلِ
قــد عَوَّدَ الطَّيــرَ عادات وثِقــنَ بها فهُــنَّ يتبعنَــه فــي كلِّ مُتــرتَحلِ (2)

وفــي هذا الإطناب يقول الجاحظ: " لا نعلم أحدا منهم أسرَف في هذا القول وقال قولا يُرغَبُ عَنه إلا النابغة، فإنَّه يقول :

جَــوَانِــحُ قــد أيقَــنَّ أنَّ قــبيلــهُ إذا ما التقى الجَمعانِ أولُ غــالــب (3)

يعقب الجاحظ على هذا البيت فيقول: " وهذا لا نُثبته، وليس عند الطَّير والسِّباع فــي إتباع الجُموع إلا ما يسقط من ركابهم ودوابِّهم وتوقّع القتلِ، إذ كانوا قد رأوا من تلك الجُموع مرَّةً أو مرارا ،فأما أن تقصد بالأمل واليقين إلى أحد الجمعين، فهذا ما لم يقله أحدٌ " (4) .

أضف إلى ذلك عدم قبول العقل لهذا القول على سبيل الحقيقة .

وقال أعرابي يوصي سهل بن هارون:

انــزل أبا عمــرو على حَــدِّ قريــةٍ تَزيــغ إلى سَهــلٍ كثيــرِ السلائــقِ

1- الجاحظ: الحيوان: ج6، ص138 .

2- صريع الغواني مسلم بن الوليد الأنصاري: شرح الديوان، تحقيق سامي الدهان، دار المعارف، مصر، ص11.

3- النابغة الذبياني: الديوان: الديوان :جمع وتحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ،الشركة التونسيه للتوزيع ،1976،ص 46.وجوانح :أي ميلة أجنحتها إلى الأرض لإرادة النزول على الحوم.

4- الجاحظ: الحيوان ج6، ص324 .

يقــول الجاحظ في هذا لبيت: " إنه أراد الهرب لأنه متى كان في ظهرٍ فظٍّ كثير الجوَادِّ والطرائق ،كان أمكرَ وأخفَى " (1)

وفي مقارنة بين هذا البيت والبيت الذي قاله النابغة، يقول الجاحظ: " وما أحسن ما قال النابغةُ في صفة الطريق إذا كان يتشعَّب، حيث يقول :

ونـــاجيةٍ عدَّيــتُ فــي متــنِ لاحــبٍ كَسَحل اليَمَانــي ،قاصــدٍ للمناهــلِ
لــه خُلُــجٌ تَهــوِى فُرادَى وتَــرعَوِي إلى كلِّ ذي نِيرَينِ الشَّــواكــلِ (2)

وقال بعض الأعراب في أمه :

فَــمـــا أمُّ الــرُّديــنِ وإن أدَلَّــت بعــالمـــةٍ بـــأخــلاقِ الــكــرامِ
إذا الشّيطــانُ قصَّــعَ فــي قَفَاهَــا تَنــفَــقّــنَــاهُ بـــالــحَبــلِ النــؤَامِ (3)

يفســر الجــاحظ هذا الشعر فيقول: " إذا دخل الشيطان في قاصعاء قفاها تنفقناه، أي أخرجــناه من النافقاء، بالحبل المثنى، وقد مثل ، وأحسن في نعت الشعر وإن لم يكن أحسَنَ في العُقوق "(4) .

ولم يكن الجاحظ ممن ينظرون إلى الأبيات الشعرية منفردة، وحدها بل كان يصدر الأحكــام الشعرية على المقطوعات الشعرية أيضا، فهذا هو يقول في مقطوعة شعرية لهدبة بن خشرم العذري ، بعد أن أوردها كاملة(5).

1- الجاحظ: الحيوان ج6، ص391 .

2- النابغة الذبياني :الديوان، 196. والناجية :هي الراحلة السريعة ،ظهر أو متن لاحب هو الطريق .والخلج :جمع خليج وهو الطريق المنشقة من طريق آخر .

3- أوس بن حجر :الديوان، تحقيق محمد يوسف نجم، ط3، دار صادر، بيروت ، 1979 ، ص126.

4- الجاحظ: الحيوان ج6، ص397 .

5- انظر: الحيوان ج7، ص155.

"وهُدبة هذا من شياطين عُذرة، وهذا شعره كما ترى، وقد أُمِرَ بضرب عنقه وشَدّ خِــناقه، وقلــيلا ما ترى مثلَ هذا الشعر عند مثل هذه الحال، وإنَّ امرأً مجتمعَ القلب، صــحيحَ الفكر، كثير الرين، غَضبَ اللّسانِ في مثل هذه الحال، لَنَاهيكَ به مطلقا غير موثق، وادِعاً غير خائف..." (1)

وفــي قول الجاحظ هذا إشارة للبعد النفس وأثره في قول الشعر، ولعل الشاعر الفحل يعجــز عن القول في هذا الموقف المخيف إلا ان هدبة لم يكن كذلك .ويضيف الجاحظ في حكمه قائلا :

" وما قرأتُ في الشِّعر كشعر عبد يغوث بن صَلاءَة الحارثي، وطرفة بن العَبد، وهدبة هذا، فإنّ شِعرَهم في الخوفِ لا يقصِّر عن شِعرهم في الأمن، وهذا قليلٌ جدّا " (2) .

وفي حكم الجاحظ على هُدبة هذا إعجاب بشاعريته، لذلك قارن الجاحظ بين قوله وقول الذي يقول :

أهِيــمُ بدعــدٍ ما حَيِيــتُ فإن أَمُت　　　أُكِّل بِدعــدٍ من يَهيــمُ بِهــا بَعَــدي (3)

إذ يُعد هذا البيت من أحمق الشعر كما قال الجاحظ(4)، ولا يُشبه هذا القول قول هدبة:

فــلا تَنكحــي إن فَــرَّقَ الدَّهرُ بيننا　　　أَغَمَّ القفا والــوجه ليس بأَنزَعــا (5) .

ونظر ابن شهلة المديني إلى خرطوم الفيل وإلى غُرموله فقال :

ولــم أرَ خُرطومَيــنِ فــي جســمٍ　　　قــد اعتــدَلا فــي مَشــرَبٍ ومَبــال

1- الجاحظ: الحيوان ج7، ص156 .

2- المصدر نفسه: ج7، ص157 .

3- سلوم، داود: شعر نُصيب بن رباح، مطبعة الارشاد، بغداد، 1967، ص84.والبيت هو :

أهِيــمُ بدعدٍ ما حَيِيتُ فإن أمُت　　　فوا حزنا مَن يهيم بها بعدي .

4- الجاحظ: البيان والتبيين ج4، ص11 .

5- الجبوري، يحيى: شعر هدبة بن خشرم العذري، ط 1 ،منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، بغداد، 1976، ص105 .

يعلــق الجاحظ على هذا البيت مستندا إلى معرفته بعالم الحيوان فيقول: " فقد غلِط لأن الفــيلَ لا يشــرَبُ بخــرطومه، ولكــن بـــه يُوصِلُ الماءَ إلى فمه، فشبَّه غُرموله بالخرطوم، وغرموله يشبَّه بالجعبة والقنديل، والبَربخ "(1)

وقد آثروا في ضرب المثل ببُعد ما بين جنسي الفيلة والأتان، فقد قال عبد الرحمن بن الحكيم :

أتغضَــبُ أن يقــالَ أبوك عَــفٌّ وتَرضَــى أن يقــال أبــوك زَانـــي

وأشهــدُ أن رحمــك مــن زيــادٍ كرحــم الفيــلِ مــن ولــد الأتــانِ

يقــول الجــاحظ: " فقد جعل معاويةَ من نسل الفيل لشرفه، وجعل زيادا من نسل الحمــار لَضَــعَتِه، ولعمري لقد باعد، لأنّ الغنم وإن كانت من النعَم من ذوات الجِرّة والكروش فإن ما بين الغنم والفيلة بعيد "(2) .

وقال محمد بن يسير الرياشي :

لــم يَضِرُهــا، والحمــدُ للــه ،شيء وانثنــت نحــو عَزف نفسٍ ذَهُــولِ

وفـــي ترابط أجزاء البيتِ يقول الجاحظ : " فتفقدِ النصفَ الأخيرَ من هذا البيت، فإنك ستجد بعضَ ألفاظه يتبرأ من بعض " (3) .

وأنشد ابن الأعرابي :

وبــات يــدرسُ شِعــرا لا قِــرانَ لــه قــد كــان نَقَّحــه حــولا فمــا زادا

يقول الجاحظ:" إن هذا في اقتران الألفاظ فأما في اقتران الحروف فإن الجيم لا تقارب الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين، بتقديم ولا تأخير" (4).

1- الجاحظ: الحيوان ج7، ص174 .

2- الجاحظ: الحيوان ج7، ص235 .

3- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص66 .

4- المصدر نفسه: ج1، ص68 .

وأنشد أبو العاص قال أنشدني خلف الأحمر في هذا المعنى:

وبعــض قريــض القــوم أولاد علــة يكــد لسان الناطــق المتحفــظ

وقال أبو العاص: وأنشدني في ذلك أبو البيداء الرياحى :(1)

وشعــر كبعــر الكبــش فرق بينــه لسان دعــي في القريــض دخيــل

فــيعلق الجــاحظ على قوله وبعض قريض القوم أولاد عِلّة انه إذا كان الشعر مستكرها، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التــنافر مابين أولاد العَلاّت.وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقــا، كان على اللسان عند إنشاد ذلك مؤونة . وأما قوله "كبعر الكبش"فإنه قصد عــدم الترابط والتفرق وقلة التماسك والتعاضد كما قالت ابنة الحطيئة لأبيها عندما نزل في بني كليب " تركتَ قوماً كراما ونزلتَ في بني كُليبٍ بعرِ الكبش " فعابتهم بتفريق بيوتهم(2).

وهذا القول يشير إلى الوحدة المعنوية وأهميتها في وحدة القصيدة.

وقال أحد الشعراء :

وكيــف أرجِّــي أن أســود عشيرتــي وأمــيَ من سلمــى أبوهــا وخالُهــا
رأيتــكــم سُــودا جِعــادا ،ومــالــكٌ مخصَّــرةٌ بيــضٌ سِبــاطُ نعــالُهــا

فلــم يذهــب إلى مديح النِّعال في أنفسها ،وإنما ذهب إلى سَباطة أرجلهم وأقدامهم ،ونفى الجعودة والقِصَر عنهم " (3) .

1- يُنسب الشعر لعمر بن لجأ التيمي، انظر الجبوري، يحيى شعر عمر بن لجأ التيمي، دار الحرية للطباعة، 1967 ص144 .

2- البيان والتبيين : ج1، ص66، 67 .

3- المصدر نفسه : ج3، ص107 .

يقول الجاحظ في نقده لبيت من الشعر :" لقد أخطأ مَن قال:

قــد يُــدركُ المتأنِّـــي بعضَ حاجتِــهِ وقد يكونُ مع المُستعجِــلِ الزَّلَــلُ (1)

يقــول الجاحظ : "بل لو قال : والمتأنِّي بِدرك حاجاته أحقّ ،والمستعجل بفَوت حاجاتـــه أخلَق، لكان قد وفّى المعنى حقّه، وأعطى اللَّفظ حَظَّه، وإن كان القول الأوَّل موزونا والثاني منثُورا " (2) .

3.3 التكرار عند الجاحظ :

التكرار من كَرَرَ و كَركَرَهُ: اعاده مرة بعد أُخرى، ويقال كَرَرتُ عليه الحديث وكَركَــرتُه إذا رددتُـــه عليه ،والكرُ الرجوع على الشئ، ومنه التكرار، وكررتُ الشئ تكريرا أو تكرارا (3) .

أمـــا مفهـــوم التكرار في الاصطلاح فهو إعادة معنى أو لفظة بعينها ،وترديدها أكثر من مرة (4)

أمـــا الـــنقاد والأدبـــاء فأنهم يرون التكرار في حقيقته ،إلحاح على جهة هامة في العـــبارة يعنى بها الأديب أكثر من عنايته بسواها، وهذا هو القانون الأول البسيط الذي نلمسه كامنا في كل تكرار يخطر على البال، فالتكرار يسلط الضوء على نقطة حساسة في الموضوع، ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو، بهذا المعنى، ذو دلالة نفسية قيمة تفيد الناقد الأدبي الذي يدرس الأثر ويحلل نفسية كاتبه (5) .

1- القطامي: الديوان، تحقيق إبراهيم السامرآئي، وأحمد مطلوب ،ط 1، دار الثقافة، بيروت 1960 ص25.

2- الجاحظ: الرسائل ،تحقيق عبد السلام هارون،ط 1 ،دار الجيل، بيروت، 1991 ، ج1، ص242.

3- ابن منظور: لسان العرب، مادة كرر .

4- الهليل، عبد الرحمن: التكرار في شعر الخنساء ،دراسة فنية ،دار المؤيد ،الرياض ،ط1، 1999 ص17.

5- الملائكة، نازك: قضايا من الشعر المعاصر،دار العلم ،بيروت ،ط5 ،1978 ،ص276 .

وقـــبل الحديـــث عن ظاهرة التكرار أو طريقة الجاحظ في التكرار، لابد لنا من الإقـــرار بشـــيوع هـــذه الظاهرة في الأدب العربي خصوصا ما جاء به الشعراء في أشـــعارهم، وأوزانهم، وأنغامهم من أجل ذلك قلّ أن يخلو شعر شاعر قديم، أو محدث معاصر ،من لفظة التكرار، التي تعدُ خصيصة من خصائص الشعر، ومزاياه (1) .

وهـــنا لابد لنا من أن نذكر بأن طريقة التكرار التي عاشها الشعر العربي، لم تكن حكرا على الشعر العربي، بل شهد النثر العربي هذه الظاهرة أيضا وتأثر بها، فقد كانت من الأساليب التي يلجأ إليها البلاغي والنحوي في سرد أقواله .

ومن هنا فأن بعض الدارسين ينفون تناول كتب البلاغة العربية لظاهرة التكرار، ماعدا إشـــارات عابـــرة عند أبي هلال العسكري في كتابه الصناعتين، وابن رشيق في كتابه العمدة (2) .

وفي هذا القول جور وظلم للجاحظ والأدب العربي عامة، فإن لم تكن هذه الظاهرة بهذا المسمى ظاهرة عند القدماء، فهذا لا يعني عدم وجودها، أما عدم الإشارة للجاحظ الذي مثل أنموذجا لهذه الظاهرة في الحديث عنها، وفي طرحها في أدبه الجم .

وفـــي هـــذا يقـــول عز الدين السيد: " إن من أوائل المتكلمين في التكرار، وترديد الألفاظ صاحب كتاب البيان والتبيين الذي كان تكرير اللفظ من أظهر سمات أسلوبه، فلا تقرأ فصلا من فصول كتبه إلا طالعك بهذه السمة (3) .

ولعلني أستبق الأحداث بأن أقول إن الجاحظ لم يكتف بتكرار الأحداث فحسب، بل كَـــرر القصص والحكايات الأدبية، ولم يكن التكرار مقتصرا على كتاب البيان والتبيين بل كان مبثوثا في جميع مؤلفاته كما سنرى من خلال دراستنا .

1- الهليل: التكرار في شعر الخنساء ، ص21 .

2-انظر الملائكة: قضايا من الشعر المعاصر ، ص275 .

3- السيِّد، عز الدين علي: التكرير بين المثير والتأثير، ط2، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، 1978 ص 90.

فهل قصد الجاحظ هذا التكرار أم أنه جاء به دون قصد منه، أم أن أسلوب الاستطراد الذي عُرف به هو السبب في ذلك، هذا ما سنتعرف عليه في دراسة هذه الخاصية .

وأما مَن عاب على الجاحظ هذه الطريقة في التكرار، فأن الجاحظ نفسه يرد عليهم فيقول :

"وما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى اعادة بعض الألفاظ وترداد المعاني عيًّا إلا ما كان من النخار بن أوس العذري، فإنه كان إذا تكلم في الحمالات(1) ،وفي الصفح، والاحتمال، وصلاح ذات البين، وتخويف الفريقين من التفاني، والبوار، ردَّد الكلام على طريق التهويل، والتخويف، وربما حمى فَنَخَرَ " (2) .

ففي هذا القول إشارة من الجاحظ لأهمية التكرار في بعض المواضع، أضف إلى ذلك بعض الدواعي التي تدفع بالأديب لهذا التكرار فمنها التخويف، والتهويل، وهذا ما أشـــار إليه صاحب أنوار الربيع في أنواع البديع عندما قال إن التكرار يأتي لنكتة ما، فمـــن نكـــته التوكيد، والزيادة في التنبيه على ما ينفي التهمة، والإيقاظ من سنة الغفلة، ليكمل تلقي الكلام بالقبول، ومنها تَذكُرٌ ما قد بَعد بسبب طول الكلام، وهذا التكرار قد يكون مجردا عن رابط، وقد يكون مع رابط، ومنها أيضا التهويل والتعظيم، ومنها التلذذ بذكر المُكرر، ومنها التنويه بشأن المذكور (3) .

ففي التكرار حكمة، أوسمة فنية يسعى الكاتب لتحقيقها، أو جذب الأسماع إليها والتنبيه إلى ما يُقال ،وفي التكرار سِمة العالمية والشمولية كما يقول الجاحظ :

" وجملـــة القول في الترداد، أنه ليس فيه حدٌّ يُنتهى إليه، ولا يُؤتى على وصفه، وإنما ذلك على قدر المستمعين، ومَن يحضرُه من العوام والخواصّ، وقد رأينا الله عز وجل

1- الحمالات :جمع "حمالة "وهي الدية يحملها قوم عن قوم، انظر الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص105.

2-الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص105 .

3-ابن معصوم، علي صدر الدين المدني :أنوار الربيع في أنواع البديع ،تحقيق :شاكر هادي مطبعة النعمان ،1969 ،ج5 ، ص345 .

ردَّد ذِكر قصة سيدنا موسى وهود، وهارون وشعيب، وإبراهيم ولوط، وعاد وثمود، وكذلك ذكر الجنة والنار، وأمور كثير، لأنه خاطب الأمم من العرب وأصناف العجم، وأكثرهم غبيٌّ غافِل ،أو معاندٌ مشغول الفِكر ساهي القلب " (1) .

فالتكرار ليس ظاهرة شكلية فحسب، بل هو عنصر فني يدعم فكر الأديب، ويخدم النص الأدبي ولا يحس هذا إلا من قرأ وجرب .

وبالرغم مما قلناه عن دور التكرار في الأدب العربي، إلا أن هذا الأمر لا يكون على الإطـــلاق ،فقد يكون التكرار مذموما لا داع له ولا فائدة منه كما في هذه القصة التي يسردها الجاحظ لنا لنأخذ منها العبرة فيقول:" جعل ابن السماك يوما يتكلم وجاريةٌ له حيثُ تسمع كلامَه فلما انصرفَ إليها قال لها: كيف سمِعتِ كلامي؟ قالت: ما أحسنَه، لـــولا أنك تكثر ترداده.قال: أردده حتى يفهمه من لم يفهمه. قالت: إلى أن يَفهَمَه من لا يفهمه قد ملّه من فَهِمَه "(2) .

وبعـــث عبيد الله بن مروان إلى الوليد بن عبد الملك، ابن أخيه بقطيفة حمراء، وكتب إلـــيه:"إنّـــي بعثتُ إليك بقطيفة حمراء حمراء " ،فكتب الوليد :"قد وصلت إليَ القطيفة ،وأنت ياعَمُّ أحمقُ أحمقُ " (3) .

وفي هذا الرد تعريض بتكرار كلمة حمراء والتي وصف بها عبيد الله ذلك الكساء الذي أهداه إلى ابن أخيه، ومن جميل رد الوليد عليه قوله:" وأنت يا عم أحمق أحمق، وكأنه يقول له هذه بضاعتكم رُدَّتْ إليكم، وكان يكفي عبيد الله أن يقول قطيفة، ويسكت .

وقريـــب من هذا قول محمد بن الجهم للمكي: " إني أراك مُستبصرا في اعتقاد الجزء الذي لا يتجزأ ،فينبغي أن يكون عندك حقًّا حقًّا " قال: "أما أن يكون عندي حقًّا حقًّا فلا، ولكنه عندي حقّ" (4) " .

1- الجاحظ :البيان والتبيين ج1، ص105 .

2- المصدر نفسه : ج1، ص104 .انظر الخبر في الفصل الأول .

3- المصدر نفسه : ج2، ص232 .

4- المصدر نفسه : ج2، ص232 .

وقـــال ابن بشار البرقي: " كان عندنا واحدٌ يتكلم في البلاغة، فسمعتُه يقول: " لو كنت ليس أنا، وأنا ابن مَن أنا منه، لكنتُ أنا أنا وأنا ابن مَن أنا منه، فكيف وأنا أنا وابن مَن أن منه "(1) .

ولم يقتصر المذموم من التكرار على المنثور، بل لعله كان أكثر وضوحا في المنظوم الذي توقف الدارسون عليه كثيرا ومنه قولهم :

وقَبــرُ حَــربٍ بمــكــانٍ قفــر وليـــس قُــربَ قَبرِ حَــربٍ قَبــرُ

ولعل هذا التكرار في القاف والراء، سبب لنسبة العرب هذا الشعر إلى الجن كما رأينا في الفصل الثاني(2) .

هـــذه ضـــروب من التكرار الرديء الذي لا تتحقق فيه الفائدة ،بل هو ضرب من الحمق ،واللحن الذي لا يُقبل من الخطيب ولا من البليغ .

وبعد هذا الحديث العام كان من الجدير بنا أن نقف على مظاهر التكرار والتي تمثل طريقة فنية لدى الجاحظ متمثلين بما جاء به أيضا .

فمـــن التكرار ما يكون في الكتاب الواحد، تدليلا على أهميتها، وعلى استيفاء الفكرة حقها، وتأكيدا للموضوع ومن ذلك قول الفرزدق: " أنا عند الناس أشعر العرب، ولرُبَّما كان نزعُ ضرسٍ أيسرَ عليَّ من أن أقول بيت شعر " (3) .

يُعيد الجاحظ تكرار الخبر نفسه عن الفرزدق مرة أخرى وفي الجزء ذاته، ولكنه في هذا التكرار يضع الخبر في سياق يتناسب إلى حد بعيد مع قول الفرزدق، وكأن الجاحظ اســـتدرك ما فاته في هذا الخبر أو لعله أراد له القبول والاستحسان، ففي المرة الأول يذكـــر الجـــاحظ الخبر بشكل عابر دون وقوف عنده، أما المرة الثانية يقول: " وليس الفـــرزدق فـــي طِوالِـــهِ بأشعَرَ منه في قصاره وفي الشعراء مَن يخطب وفيهم من لا

1-الجاحظ: البيان والتبيين ج2، ص315 .

2- انظر الفصل الثاني .

3- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص131 .

يستطيع الخطابة، وكذلك حال الخطباء في قريض الشعر، والشاعرُ نفسه قد تختلف حالاتُه، وقد قال الفرزدق: " أن عند الناس أشعَرُ النّاس، وربُّما مرَّت علّيَّ ساعةٌ ونزعُ ضرسٍ أهونَ علَيَّ من أن أقول بيتا واحدا " (1) .

وفي هذا التكرار دلالة على التأكيد، وعلى حرص الجاحظ على بيان القضايا النقدية وافية من غير نقصان، وإن اختلفت الرواية الثانية بعض الشيء، ولعل ذلك عائد لاعتماد الجاحظ على ذاكرته في كثير من الأوقات.

وفي تكرار القصص النقدية، والحكايات الأدبية قول أبي نوفل عبيد الله بن سالم لرؤية بن العجاج: يا أبا الجَحَّاف مُتْ إذا شئت قال: وكيف ذاك؟ قال رأيت اليوم عُقبة بن رُؤبة ينشد رجزا أعجبني .قال:"إنه يقول، لو كان لقوله قِران"

وأنشد ابن الأعرابي :

وبات يدرسُ شِعرا لا قِرانَ له قد كان نَقَّحه حولا فما زادا

يعلق الجاحظ على هذا فيقول:" إن هذا في اقتران الألفاظ فأما في اقتران الحروف فإن الجيم لا تقارب الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين، بتقديم ولا تأخير ،والزاي لا تُقارب الظّاء ولا السّين ولا الضاد ولا الذال، بتقديم ولا بتأخير " (2) .

وفي إشارة أخرى لاقتران الألفاظ يُعيد الجاحظ تكرار هذا الخبر مرة أخرى، ولكنه بشكل مختصر، وسريع دون تعليق كما فعل في المرة الأول، وكأنه يُجمل مُفصلا، وفي هذا الخبر تلذذ وتذكير بما بَعد بسبب طول الكلام (3) .

ومن طريف ما كَرَره الجاحظ قصة معاوية بن أبي سفيان مع صُحار بن عياش العبدي حين قال له معاوية: ما الإيجاز؟ قال صُحار: أن تُجيب فلا تُبطيء وتقولَ فلا

1-الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص209 .

2- المصدر نفسه: ج1، ص68 .

3- يُعيد الجاحظ الخبر مرة أخرى ،انظرالجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص205 .

تُخطيء.فقال   له معاوية:أو كذالك تقول يا صُحار؟ قال صُحار: أقِلني يا أمير المؤمنين ألا تُبطئ ولا تخطئ. (1) .

يعلــق الجــاحظ على نقد معاوية بن أبي سفيان لصُحار بن عياش بقوله :" لو أن سائلا سألك عن الإيجاز، فقلت : لا تخطئ ولا تبطئ، وبحضرتك خالد بن صفوان، لما عرَف بالبديهة وعندَ أولِ وهلة، أن قولك "لا تخطئ " متضمِّنٌ بالقول، وقولك "لا تبطئ "متضمِّن بالجواب. وهذا حديثٌ كما ترى آثروه ورَضوه، ولو أن قائلا قال لبعضنا ما الإيجــاز ؟ لظننتُ أنه يقول الاختصار، وحقيقة الإيجاز هي الحذف بقدر ما لا يكون سببا لإغلاق المعنى" (2) .

يَذكر الجاحظ هذه القصة مبتورة، فيتنبه إلى ذلك في كتاب البيان والتبيين(3) فيقول: "ثم رجع بنا القولُ إلى الكلام الأول " إشارة للخبر الذي أورده في كتاب الحيوان فيكمل النص، والذي بدا فيه غموضا ولُبسا واضحا، حيث تنبه الجاحظ لهذه الغفلة والتي كثيرا ما يقع فيها الإنسان .

ومن القصص النقدية التي سلك الجاحظ فيها طريقة التكرار، قصة مالك بن الأخطل

1-الجاحظ: الحيوان ج1، ص91 .

2-المصدر نفسه : ج1، ص91 .

3- فيُشــير الجــاحظ إلــى مقدمــة هذا الخبر بقوله : قال معاوية بن أبي سفيان لصُحار بن عَياشٍ العــبدي: ما هذه البلاغةُ التي فيكم؟ قال: شيء تَجيش به صدورُنا فتَقذفُه على ألسنتنا. فقال   له رجل مــن عُرْضِ القَوم : يا أمير المؤمنين، هؤلاء بالبُسْر والرُّطَب، أبصرُ منهم بالخُطَب. فقال له صُحار أجل والله، إنا لنَعلم إن الرِّيح لَتُلقِحُه، وإن البَرد لَيعقِدُه، وإن القمرَ ليَصبغُهُ وإن الحَرّ ليُنضِجُه.

وقــال له معاويــة:مــا تعــدُّون البلاغةَ فيكم؟ قال الإيجاز. قال له معاويةُ : وما الإيجاز؟ قال صُــحار:أن تُجيــب فــلا تُبطيء وتقولَ فلا تُخطيء.فقال   له معاوية:أو كذالك تقول يا صُحار؟ قال صُــحار: أقِلنــي يا أمير المؤمنين ،ألا تُبطئ ولا تخطئ. ففي الخبر الأول في كتاب الحيوان نقص ،يســتدركه الجاحظ في كتاب البيان والتبيين ،انظر البيان والتبيين ج4 ص46 . وفي هذا التكرار تأكيد للفكرة وتنبيه عليها واستدراك لِما فات .

والذي بعثه أبوه ليسمع شعر جرير والفرزدق، فسأل أبوه عنهما فقال: "جرير يغرِف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر. فقال: الذي يغرف من بحرِ أشعرهما" (1).

وعلى سبيل التنبيه والتأكيد على هذا الحس النقدي يُعيدُ الجاحظ سرد هذه القصة مرة أخرى في كتاب البيان والتبيين (2) .

ولعــل الحــس النقدي لدى الجاحظ حدا به لأن يعيد لنا قصة أخذ الشعراء معاني بعضــهم بعضـــا فقد يُفيد شاعر من أخر ،وقد يستولي شاعر على شعر أخر، فيفتضح أمـــرهُ كمـــا وقد يُحاول شاعر أخذ معنى بيت فيستحيل عليه الأمر كمَن أراد أخذ بيت عنترة كما يقول الجاحظ فتحامى المعنى عليه فقد قال عنترة :

فــتَرى الذُّبــابَ بهــا يغنّــي وحــدَه هَزِجــاً كفعــل الشَّــارِبِ المُترنِّــم

غَــرداً يــحُــكُّ ذِراعــه بــذِراعــه فِعــلَ المكبِّ على الزِّنَــادِ الأجــذمِ(3)

فالجاحظ يروي هذين البيتين في معرض نقده فيقول : "ولا يعلم في الأرض شاعرٌ تَقَدَّمَ في تشبيهٍ مُصيب تامّ، وفي معنى غريبٍ عجيب، أو في معنى شريف كريم، أو في بديعٍ مُختَرع، إلا وكلُّ مَن جاءَ من الشُّعراءِ من بَعدِه أو معه، إن هو لم يعدُ على لفظه فيســرقَ بعضه أو يدعيَه بأسره ،فإنه لا يَدعُ أن يستعينَ بالمعنى، ويجعلَ نفسه شريكا فيه، كالمعنى الذي تتنازعُه الشعراء فتختلفُ ألفاظهم، و أعاريضُ أشعارهِم، ولا يكونُ أحــدٌ منهم أحقَّ بذلك المعنى من صاحبه، أو لعله أن يجحد أنهُ سمع بذلك المعنى قَطُّ، وقــال إنَّه خَطرَ على بالي من غير سماع، كما خطَر على بال الأوّل، إلا ما كان من عنترة في صفة الذّباب" (4) .

1- الجاحظ :البيان والتبيين ج2، ص117 .

2- انظر المصدر نفسه : ج2، ص273 .

3- عنترة :الديوان، ص197 .

4- الجاحظ: الحيوان ج3، ص312 .

يذهـــب الجـــاحظ بعيدا في التعليق على هذين البيتين، وعلى المقدرة العالية لدى عنترة فيهما، ولا يكتفي الجاحظ بهذا القدر، فحسب بل انه يشير إليهما مرة أخرى في موضع أخر فيقول :

" لم يدَعِ الأولُ للآخِرِ معنى شريفا ولا لفظا بهيًّا إلا أخَذه، إلا بيت عنترة "(1) .

ولعـــل الدارس لهذه الطريقة من التكرار، يجد أن هذه الخاصية التي جُبل عليها الجـــاحظ تختلف من مكان إلى مكان، فقد يُكَرِرُ الجاحظ هذه القصة كاملة، وقد يُشيرُ إليها إشارة عابرة، وقد يستكمِل موضوعها الذي لم يستكمله في المرة الأول، وقد يلمس القارئ في بعض الأوقات اختلاف شكليا في هذه التكرارات كما في قول عُمَر بن لجأ لبعض الشعراء: " أنا أشعرُ منك ! قال: وبمَ ذاك ؟ قال :لأنِّي أقولُ البيتَ وأخاه ،وأنت تقـــولُ البيـــتَ وابنَ عمِّه " (2) . وفي موضع أخر من الكتاب يُشير الجاحظ إلى هذه القصة مرة أخرى، لكن دون أن يُشير إلى عمر بن لجأ (3) .

ومن التكرار ما يكون زيادة في التنبيه، وجذبا للانتباه كما في قصة عقبة بن رؤبة عـــندما أنشد أباه رؤبة بن العجاج شعرا، فقال له :كيف تراه ؟ قال: " يا بُنَيّ إنّ أباك لَيَعرِضُ لهُ مثلُ هذا يمينا وشمالا فما يلتفت إليه "(4) .

فالجاحظ يثير انتباه السامع لهذه القصة، ويُعيده إلى أجواء هذه القصة مرة أخرى عندما قال في موضع أخر إن رؤبة عاب شعر ابنه فقال: " ليس لشعره قِرَان "، وجعل البيت أخا للبيت إذا أشبهه ،وكان حقه أن يُوضع إلى جنبه(5) .

1- الجاحظ: البيان والتبيين ج3، ص326 .

2- المصدر نفسه: ج1، ص206 .

3- انظر: المصدر نفسه ج1، ص228 .

4- المصدر نفسه: ج1، ص207 .

5- المصدر نفسه: ج1، ص228 .

ولم يكن التكرار عند الجاحظ مقتصرا على النثر دون غيره، إذ إن الجاحظ معني بالنـــثر أكثر من غيره، فكيف لا وهو الأديب الألمعي، إلا أن هذا لا يعني إغفال ديوان العـــرب، ونحن نرى كيف رصع الجاحظ مؤلفاته بدُرر الشعر العربي، لذلك كان لهذا الشعر نصيب من التكرار أيضا دلالة على حرص الجاحظ على جودة الأدب والشعر على حد سواء .

فمن نكت التكرار التهويل، والتعظيم كما هو الحال في تهويل أمر الهجاء، وتعظيم المدح وذلك في أثر المدح أو الهجاء في نباهة القبيلة إذا كان بيت واحد يربطه الشاعر في قوم لهم النباهة والعدد ،والفعال، مثل نُمير يصير أهلُه إلى ما صارت إليه نُمير، فقد بلغ مضرَّة جرير عليهم(1) حين قال :

فَغُـضَّ الطَّـرفَ إنَّـكَ مِـن نُميـرٍ فـلا كَعبـا بلغـتَ ولا كِـلابَـا (2)

إلى أن قال شاعر آخر وهو يهجو قَوما آخرين :

وسَـوفَ يزيدُكـم ضَعـةً هِجَائِـي كمـا وضـعَ الهِجـاءُ بَنِـي نُمـيرِ

وحتى قال أبو الرُّديني :

أتُـوعدُنِـي لِتَقتُلَنِـي نُميـرٌ متـى قتلـت نُميـر مـن هَـجَاهَـا

وقد كان الرجلُ من بني نُمير إذا قيل له: ممن الرجل ؟ قال نُميريّ كما ترى إلى أن قال جرير بيته هذا، حتى صار الرجل من بني نُمير إذا قيل له: ممن الرجلُ ؟ قال مـن بني عامر ! يُعيد الجاحظ هذه القصة، ويُعلق عليها قائلا: " وما علمتُ في العرب قبيلة لقيت من جميع ما هُجيت به ما لقيت نُميرٌ من بيت جرير، وزعموا أنّ امرأةً مرت بمجلسٍ من مجالس بني نُمير، فتأمَّلها أناس منهم فقالت: "يابني نمير، لا قولَ الله سمعتم، ولا قولَ الشاعر أطعتم !(3). قال الله تعالى :

1- الجاحظ: الحيوان ج1، ص364 .

2- جرير: الديوان، ص98 .

3- الجاحظ :البيان والتبيين ج4، ص36 .

"قُلْ للمُؤمِنينَ يَغضُّوا من أبصَارِهِم " (1)،أما قول الشاعر فهو إشارة لبيت جرير هذا .

ومما اعتنى به الجاحظ، دقة التصوير وجماله، وخلوه من العيوب النطقية كاللثغة واللكنة، وذلك عندما يعبر الشاعر أو الخطيب في كلامه، إلا أن هذا لا يمنع أن يُصاب الخطيـــب بهذه العيوب اللفظية، ويبقى محافظا على درجة عالية من الفصاحة كما هو حال واصل بن عطاء، وقد قيل ليزيد : " ما أحسَنُ ما مُدِحتَ به ؟"(2) قال :قول زياد الأعجم :

فتى زَادهُ السُّلطان في الحمدِ رَغبة　　　إذا غَيَّرَ السلطانُ كلَّ خليلِ (3)

ومـــرة أخرى يُعيد الجاحظ هذه الشعر بعد أن وضعهُ في إطار يتناسب معه في البيان والتوضيح بعد أن أشار إليه إشارة عابرة في المرة الأول، فيقول: " فمن اللُّكن ممَّن كان خطيبا، أو شاعرا أو كاتبا داهيا زيادُ بن سَلمَى أبو أمامة ،وهو زياد الأعجم، قال أبو عبيدة: كان يُنشد قوله :

فتـــى زادَهُ السُّلطـــان في الـــودِّ رِفعـــةً　　　إذا غيّـــرَ السلطـــانُ كـــلَّ خليـــلِ

قال: " فكان يجعل السِّين شينا والطاء تاء ،فيقول : " فتى زاده الشُّلّتان " (4) .

الفصل الرابع:

قضايا من النقد الأدبي

1.4 اللفظ والمعنى :

قبل الحديث عن قضية اللفظ والمعنى لا بدّ من الإشارة لما تحدثنا عنه في الفصل السابق ،حيث توقفنا عند تعريف البلاغة، وأوصافها، إذ إن هذه التعريفات كانت عامة

1- سورة النور، آية (30) .

2- الجاحظ: الحيوان ج7، ص151 .

3- بكار، يوسف حسين: شعر زياد الأعجم، ط 1، دار المسيرة، بيروت، 1983 ، ص113 ، وهو من الشعر المنسوب لزياد الأعجم وهو قوله :

فتـــى زادَهُ السُّلطـــان في الخير رَغبةً　　　إذا غيّـــرَ السلطـــانُ كـــلَّ خليـــلِ

4- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص71 .

لا تُبين عن عناصر الكلام البليغ ،وأن هذه التعريفات لا تلتقي مع ما ندركه في هذه الأيام عن البلاغة ،وفي هذا الصدد يقول الحمصي: " إن الجمال في القول وإن علم البلاغة هو درس فن القول وبيان مواطن الجمال فيه ،والأسباب والوسائل التي تساعد على إيجاده، كما أن كل هذه الأقوال لم تتعرض إلى جوهر النظرية التي نحن في صدد دراستها وهي (نظرية اللفظ والمعنى) .فلم تبين إذا كان موضع الجمال في الكلام هو الألفاظ على حدة أو المعاني على حدة أوكلاهما معا " (1)

ومـــن هـــنا كان لابدَّ لنا من الوقوف عند مقولة الجاحظ في اللفظ والمعنى إذ يُعَدُّ الجاحظ أول مَن افتتح النقاش في موضوع المفاضلة بين اللفظ والمعنى، أو على الأقل هو الذي أعطاه أبعادا خاصة ،وذلك حينما أعلى من شأن اللفظ على حساب المعنى(2) ونظرا لأهمية هذه المقولة فإننا نوردها كاملة :

ففـــي قضية اللفظ والمعنى يوجه الجاحظ نقدا قاسيا لأبي عمرو الشيباني حيث قال : " وقد بلغ من استحسانه لهذين البيتين، ونحن في المسجد يوم الجمعة ،أن كلَّف رجلا حتى أحضر دواة وقرطاسا حتى كتبهما له، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبدا،ولولا أن أدخِلَ في الحكم بعض الفتك لزعمت أن ابنه لا يقول شعر أبدا"وهما قوله:

لا تحسبِـــنَّ المـــوتَ مَوتَ البِلَـــى فإنَّمـــا المَـــوتُ سُـــؤالُ الرِّجـــالِ

كـــلاهـــمـــا مـــوتٌ ولـــكِـــنَّ ذا أفظَـــعَ مـــن ذاكَ لـــذلِّ السُّـــؤال (3)

يعقـــب الجاحظ على هذين البيتين فيقول: " لقد ذهب الشّيخُ إلى استحسان المعنى والمعاني مطروحةٌ في الطريق يعرفها العجميُّ والعربيُّ، والبدويُّ والقرَوي، والمدنيّ، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيُّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحَّة

1- الحمصي ، نعيم: البلاغة بين اللفظ والمعنى "من عصر الجاحظ إلى عصر ابن خلدون "مجلة المجمع العلمي العربي ،المجلد الرابع والعشرون ،الجزء الأول ،1949 ،ص443 .

2- الجابري ،محمد عابد : بنية العقل العربي ،دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية ،المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ،ط 1 ،1985 ، ص75 .

3- الجاحظ: الحيوان ج3، ص131 .

الطّــبع وجـــودَة السَّــبك فإنمـــا الشعر صناعةٌ، وضـــرب من النسيج، وجنس من التصوير"(1).

يستند كثير من الباحثين إلى هذه المقولة في إثبات الفصل بين اللفظ والمعنى، بل إن بعضـــهم يرى تقسيم نقاد العرب إلى قسمين لفظيين أو أنصار اللفظ ،يجعلونه وحده هــدف البليغ ، ويدعون البلغاء إلى العناية به وحده ،ويضعون الجاحظ على رأس هذا الفــريق، ومعنويين أو(أنصار المعنى) ، يجعلون له المكانة الأولى في النص الأدبي، ويأخذون البلغاء بالغوص عليه، وتتبعه والبحث عنه ، ويضعون على رأس هذا الفريق عبد القاهر الجرجاني " (2) .

وفـــي هــذا القول وهم كبير كما يقول أحمد بدوي، وفيه تبدو النظرة السطحية والقاصرة ، والمجحفة بحق الجاحظ، إذ لابد لنا إذا أردنا التعرف على ما قاله الجاحظ في هذه القضية من قراءة كتابه البيان والتبيين والتعرف على آرائه في هذه القضية لا أن نأخذ الكلمات من سياقها الذي وضعت فيه دون التعرف على الحالة التي قِيلت فيها، ففي هذا ظلم وجور، وتأويل للأقوال على غير ما تحتمل .

فقد قال الجاحظ هذه العبارة ردا على أبي عمرو الشيباني ،الذي ينتمي لتيار النحاة واللغويــن ، ويُقابل هذا التيار تيار نقدي يقوم على العلم بالشعر، ومواطن الجمال في العبارة أيضا، وقد كان بينهما من التنافس والتخاصم الشيء الكثير (3) .

ففـــي هذا الجو السائد ينبغي أن تفهم مقولة الجاحظ لا أن تُبترَ من السياق الزمني، والتـــيار الفكري فتكون مجرد مقولة فارغة من فحواها، فالجَاحظ لا يعني أن يحط من قـــيمة المعانـــي، أو التقلـــيل من شأنها في التركيب وإنما قصده التقليل من شأن دعاة

1- الجاحظ: الحيوان ج3، ص131 .

2- بدوي ،أحمد :أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر للطبع والنشر ،القاهرة 1979 ، ص357.

3- انظر بولعراوي، مختار: مفهوم اللفظ والمعنى في التراث النقدي العربي حتى القرن السابع الهجري، رسالة دكتوراة، جامعة حلب، 1989، ص200 .

المعاني، أو من يصفون أنفسهم بأنهم يدركون القيم الفنية في الشعر (1).

ويرى محمد هدارة أن الجاحظ قد بنى فكرته على أساس أن المعاني مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية ،أما الألفاظ فهي معروفة محصورة، ولذا وجب الفضل لمن كان بارعا في المحصور الضيق من الألفاظ لا في المبسوط الممتد من المعاني، وقد أساء بعض القدماء و المحدثين فهم ما ذهب إليه الجاحظ ،وظنوا انه يفصل بين اللفظ والمعنى وأنه ينتصر للفظ، والحقيقة أن الجاحظ - كما فهمه عبد القاهر الجرجاني بحق - ينتصر لفكرة النظم التي لا تفصل بين اللفظ والمعنى والتي تجعل الصياغة محك براعة الشاعر وعبقريته بغض النظر عن قدم المعنى وتردده من عصر لعصر (2).

ويؤكد محمد الصغير على امتداد المعنى في مقولة الجاحظ وفهمها الخاطئ من الكثيرين فيقول : " وهذا النص طالما سيء فهمه، لأنه يجب - في رأينا - حمله على معنى اللانهاية ،لا على معنى الاحتقار وعدم المبالغة بالمعاني " (3)

فالجاحظ في نقده هذا "يرى المعاني موفورة لكل إنسان، ويرجح ناحية اللفظ على ناحية المعنى صراحة ،وهو إنما يقصد بالمعاني المعاني العامة، كوصف الرجل الكريم بالبحر وما أشبه ذلك ولا يريد بها المعاني التفصيلية الجزئية، ولا هذه المعاني الثانية التي يُسميها عبد القاهر الجرجاني معنى المعنى والتي هي الصور التي يبرز فيها المعنى البدائي في ثوب مزركش " (4) .

1- بولعراوي، مختار: مفهوم اللفظ والمعنى في التراث النقدي العربي، ص 200 .

2- هدارة، محمد: مشكلة السرقات في النقد العربي دراسة تحليلية مقارنة ،المكتب الإسلامي بيروت ،ط 2 ،1981، ص222 .

3- بناني، محمد الصغير: النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر، 1983 ، ص140 .

4- الحمصي: البلاغة بين اللفظ والمعنى، ص446 .

ومـــن المعاني الموفورة لدى العامة، لكن اللفظ قصر عنها قول أبي عتاب إبراهيم بن جـــامع لعمرو عندما ذهب بصره : " يا أبا أُسَيّد لا تجزعنَّ من ذَّهَاب عينَيك وإن كانتا كريمتَيك ،فإنك لو رأيتَ ثوابَهما في ميزانك تمنيت أن يكونَ الله عز وجل قد قطعَ يدَيكَ ورِجلَيك ، ودقَّ ظهرك وأدمَى ضِلَعَيك "

قال : " فصاحَ به القومُ وضَحِكَ بعضهم . فقال عمرو: " معناه صحيحٌ ،ونيتُه حسنة ،وإن كان قد أخطأ في اللفظ " (1) .

وفي هذا القول إشارة إلى أن اللفظ قد يخون الإنسان فلا يعبر عما في داخله من المعاني .

أدلة على اهتمام الجاحظ باللفظ والمعنى على حد سواء :

من الجدير بالذكر القول أن الجاحظ لم ينتصر للفظ على حساب المعنى إلا في هذه المقولة (كما يزعم بعضهم) ونحن نعلم أن الجاحظ عندما قال هذه المقولة كان منفعلا ،ممـــا يعنـــي عدم عمومية هذه المقولة، وفي ما يلي أقوال يوردها الجاحظ تدلل على المساواة بين اللفظ والمعنى في كثير من الأوقات :

فقـــد تنبه الجاحظ إلى حقيقة مهمة في عملية الخلق الأدبي، حين رأى أن للمعنى وجـــودا مســـتقلا قبل تدوينه أو النطق به في قوله : " قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعانـــي : المعانـــي القائمـــة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم، والمتخلِّجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فِكَرهم، مستورةٌ خفية ... " (2) .

فالجـــاحظ يـــتحدث عن المعاني القائمة في صدور الناس والمتصورة في أذهانهم قبل النطق بها تدليلا على أهمية العناية بها قبل صياغتها .

وفـــي مقولة الجاحظ هذه كما يقول بدوي طبانة مذهب من المذاهب، كان الجاحظ أول مـــن نادى به في النقد العربي، وهو مذهب الصناعة ،والافتتان في الصياغة . فالنظرة

1-الجاحظ: الحيوان ج5، ص167 .

2- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص75 .

إلـــى الأدب ينبغي أن تكون إلى مقدار ما حوى من آثار الصنعة من جودة التشبيه، وحسن الاستعارة، وابتكار الصورة التي يتميز صاحبها على غيره من الأدباء بمقدار ما تأنق فيها ،وبمقدار ما غالى في إبراز الفكرة على هيئة غير ما عرف الناس " (1) .

وفـــي حديـــث الجاحظ عن صحيفة بشر بن المعتمر ينقل قوله : " ومن علم حقّ المعـــنى أن يكـــون الاسم له طبقا ،بتلك الحالُ له وفقا، ويكون الاسم ،له لا فاضلا ولا مفضولا "(2).

وفـــي موضع أخر من الصحيفة يرى بشر بن المعتمر أن من رام معنى كريما فعليه أن يلتمس له لفظا كريما .

والجـــاحظ عندما أورد هذه الأقوال لم يكن مُتناقضا معها، بل كان موافقا ومُقرا لها في كثير من الأوقات .

ويذكر الجاحظ أن ثمامة بن أشرس قال لجعفر بن يحيى يجب عليك في البيان : " أن يكون الاسم يُحيط بمعناك، ويجلي عن مغزاك " (3) .

فالمعنى عام مطلق، يُحدده اللفظ ويحصره، ويُزيل كل غموض قد يشوبه، إن كان موفقا في اللفظ .

ويضـــيف ثمامة بن أشرس في وصف جعفر بن يحيى الذي بلغَ مَبلغا كبيرا في حُســـن الإفهام، إذ كان لفظهُ في وزن إشارته،ومعناه في طَبَقة لفظِه،ولم يكن لفظُه إلى سمعك بأسرَعَ من معناه إلى قلبك"(4)

1- طبانه، بدوي: البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى ،ط4، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1968، ص98 .

2- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص93 .

3- المصدر نفسه ج1، ص106 .

4 - المصدر نفسه ج1، ص111 .

وفي هذا القول دليل على الثنائية بين اللفظ والمعنى ،فهما في درجة واحدة إذا هبط أحدهما عن الأخر ،اختل الأمر وفسد القول .

وفي موضع أخر يؤكد الجاحظ على مقولة بشر بن المعتمر في شرف المعاني فيقول : " إلا أنني أزعم أن سخيف الألفاظ مشاكلٌ لسخيف المعاني ... " (1) .

فالمعانـــي ليس سخيفة على الإطلاق، كما أن الألفاظ ليست شريفة على الإطلاق، فقد يكون اللفظ فخما، وقد يكون سخيفا، وكذلك المعنى .

لذلك قال بعض الربانيين مُحذرا أصحاب الكلام: " أنذركم حُسنَ الألفاظ ،وحلاوةَ مخـــارج الكلام ،فإنَّ المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا وأعاره البليغُ مَخرجا سهلا، ومنحه المـــتكلم دَلا متَعشّقا ،صار في قلبك أحلى ،ولصدرك أملاَ ،والمعاني إذا كُسِيت الألفاظ الكـــريمة، وألبست الأوصافَ الرفيعة ،تحولت في العيون عن مقادير صُوَرها، وأربَت على حقائق أقدارها ... "(2) .

يصـــور هـــذا الرباني المعاني بالجسد والألفاظ بالثوب الجميل الفتان الذي يجذب الأنظـــار إليه ، فهما روح وجسد لا ينفصلان، إلا أن هذا الجسد ربما تعرض لتشويه لفظي من قبل المتكلم ،مما يحط من قدره .

وفـــي ثنائـــية اللفـــظ والمعـــنى قول الجاحظ بوجود جهابذة للمعاني كما للألفاظ نقاد، يمحصـــونها ويدققونها ،فالناقد لا ينظر إلى الألفاظ دون أن يأخذ بعين الاعتبار معاني هذه الألفاظ .

يُعيد الجاحظ التأكيد على مقولته المشهورة وهي:" أن لكل مقام مقال " في قوله: " ولـــكل ضـــرب مـــن الحديث ضربٌ من اللفـــظ، ولكلِّ نـــوعٍ من المعاني نوعٌ من الأسماء "(3) .

1-الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص145 .

2-المصدر نفسه : ج1، ص254 .

3-الجاحظ: الحيوان ج3، ص39 .

أمـــا الإطـــناب والإيجاز في الألفاظ فلا يكون مُطلقا، بل يعود الأمرُ فيه للمعاني، وهـــذا ما نُحسه في قول الجاحظ: " إنما الألفاظ على أقدار المعاني، فكثيرها لكثيرها، وقلـــيلُها لقليلها ....والمعاني المفردة البائنة، بصورها وجهاتها، تحتاج من الألفاظ إلى أقل مما تحتاج إليه المعاني المشتركة والجهات الملتبسة " (1)

وفي هذا القول دليل على أن للمعاني أقساما عدة، تختلف بشرفها وصورها وجهاتها .

ومما يُروى عن الجاحظ أنه قال باستحالة المعنى، وعدم القُدرة على أخذه، من قبل الآخرين كما في أبيات عنترة التي سبق الحديث عنها، لذلك فمن غير المعقول أن تكون المعاني مطروحة على الإطلاق .

ولعلني لا أذهب بعيدا إن قلتُ إن قول الجاحظ هذا ينطبق على أبي عمرو الشيباني إذ يقول :"يجبُ أن يكون اللفظُ مقصورا على معناه لا مقَصرا عنه ولا فاضلا عليه "(2) .

أما أبو عمرو الشيباني فقد نظر إلى المعنى، فقَصر لفظه عن معناه ،فقال الجاحظ ما قال .

وهذه مقولة أخرى تنطبق على أبي عمرو الشيباني: " وشرٌّ البلغاء من هيَّأ رسم المعنى قـــبل أن يهَّئَ المعنى،عشقا لذلك اللفظ، وشغفا بذلك الاسم، حتى صار يجُرُّ إليه المعنى جَرا ويُلزقه به إلزاقا "(3)

على أن أبا عمرو الشيباني لم يهيئ هذا المعنى إلا أنه وافق من هيأ هذا المعنى فوقـــع في حكمه فالمعنى ليس مطروحا على الإطلاق، بل إن لهذا المعنى حقٌ كما أن للفظ حقٌ على المبدع، فقد يُحيي المبدع المعنى وقد يَقتلهُ كما في قول الجاحظ فعليك أن :" تُعطي المعنى حقَّه من اللفظ كما تُعطي اللفظ حظَّه من المعنى، وتُحبُ المعنى إذا كان

1- الجاحظ: الحيوان ج6، ص8 .

2- الجاحظ: الرسائل، ج3، ص 39.

3- المصدر نفسه: ج3، ص39 .

حـــيًّا يلـــوح، وظاهـــرا يصيح، وتبغضهُ مستهلكا بالتعقيد،ومستورا بالتغريب،وأن شرّ الألفاظ ما غرّق المعاني وأخفاها،وسترها وعماها" (1)

هذه مجموعة من الأدلة التي رصدناها لتبيين وإزالة الغموض عن مقولة الجاحظ ،علـــى أن هذه الأدلة غيض من فيض كثير لدى الجاحظ، فهل من الممكن بعد هذا أن يُحكم بالجزء على الكل وعلى المقيد بالمطلق ؟ فنحن ومن خلال دراستنا لهذه الأقوال لم نجد مقولة واحدة عند الجاحظ يَحط فيها من قدر المعاني ،فمن غير المعقول أن يُترك الكل ويُعمم على الجزء .

ومن نقد الألفاظ والمعاني ما يُروى عن الوليد بن عبد الملك عندما قال: " علي بن أبي طالب لُصٌّ ابن لُصّ، صُبَّ عليه شؤبوبُ عذاب " فقال أعرابيٌّ كان تحتَ المنبر: " ما يقول أميركم هذا ؟ ! وفي قوله لُصٌّ ابن لُصّ أعجوبتان: إحداهما رَميُه عليَّ بن أبي طالب أنّه لِصّ، والأخرى أنّه بلغ من جَهله ما لم يَجهله أحد، أنّه ضم اللام من لِصّ "

وفيه يقول عبد الملك: " أضَرَّ بالوليد حبُّنا له، فلم نوجهه إلى البادية "(2).

ولعـــل فـــي توجـــيه الوليد إلى البادية، أخذ للألفاظ من منابعها، واكتساب للمعاني من مصادرها.

وقريب من هذا المعنى ما يُروى في أن رجلا من البلديين قال لأعرابي: " كيفَ أهلِكْ " قالها بكسر اللام، قال الأعرابيُّ: " صَلَبا " فهذا الاختلاط والُبس ناجم عن اللفظ الخاطئ في التعبير لذلك يقول الجاحظ : " لأن الأعرابي أجاب على فَهمه، ولم يعلم أنه أراد المسألة عن أهله وعياله" (3) .

1- الجاحظ: الرسائل: ج3، ص63 .

2- الجاحظ: البيان والتبيين ج2، ص204 .

3- المصدر نفسه : ج2، ص163 .

وبالنحو يكون اللفظ رشيقا جميلا، والمعنى بهيا أَخاذا، فقد قال عمر بن الخطاب: " تعلمـوا النَّحو كما تتعلمون السُّنن والفرائض " ويُروى أن رجلا قال للحسن: " يا أبي سعيد " فقال الحسنُ : "أكَسبُ الدوانيق شغَلك عن أن تقول يا أبا سعيد " (1) .

وقـد يُفسـد اللفـظ الردئ المعنى، فمن ذلك أنه " ارتفع إلى زيادٍ رجلٌ وأخوه في مـيراث، فقال :" إنَّ أبونا مات، وإن أخينا وثَب على مال أبانا فأكله "، فقال زياد : " الذي أضَعتَ من لسانك أضرُّ عليك مماذ أضعت من مالك "، وأما القاضي فقال: " فلا رحم الله أباك، ولا نَيَّحَ عَظم أخيك ! قُمْ في لعنة الله " ! (2) .

وفـي تغيير الألفاظ تغيير للمعنى كما نشاهد في قصة أبي طالب صاحب الطعام عـندما دخـل علـى هاشميّة جاريةِ حَمدونةَ بنت الرَّشيد، على أن يشتري طعاما من طعامهـا فـي بعض البيادر، فقال لها : " إنِّي قد رأيتُ متاعَكِ "، قالت هاشميةُ : " قل طعـامَكِ "، قـال : " وقـد أدخلتُ يدي فيه، فإذا متاعُك قد خَمَّ وحَمِيّ"، وقد صار مثل الجِـيفَة " ، قالت: " يـا أبـا طالب ،ألستَ قلَّبت الشعير ، فأعطنا ما شئت وإن وجدته فاسدا "(3) .

وفي هذه الألفاظ التي أستخدمها أبو طالب قلب للمعنى الحقيقي، لذلك صوبت حمدونية هذه الألفاظ حتى يستقيم المعنى، وتزيل ما به من غموض قد يتبادر لذهن .

وفي تذوق المعاني أيضا ما يُروى أن بعضهم حضرَ عندما دُلِّيَ عبد الملك بن مروان في قبره، فتمثَّل قول عبدة بن الطيب :

فمـا كـان قيـسٌ هُلكُـهُ هُلـكَ وَاحـدٍ ولكنـهُ بنيـانُ قَـومٍ تَهدمـَا (4)

فقال مَسلمة: " لقد تكلمتَ بكلمةِ شيطانٍ "، هَلاَّ قلت :

1- الجاحظ: البيان والتبيين ج2، ص219 .

2- المصدر نفسه : ج2، ص222 .

3- المصدر نفسه : ج2، ص232 . .

4- الجبوري، يحيى: شعر عبدة بن الطيب، دار التربية، بغداد، 1971، ص15 .

إن مُقــرَمٌ منّــا ذَرَا حــدُّ نــابــهِ تخَمّــط فــينـــا نــابُ آخَــرَ مُقــرَمِ (1)

وفي قول مسلمة دليل على الاهتمام الشديد بدلالة الألفاظ، فالمعنى أمر ضروري ومهم في جمال الشعر أيضا (2) .

وقال زهير :

والإثــم مــن شــرٍّ مــا يُصــالُ بِــه والبِــرُّ كالغَيــثِ نبتــُه أَمِــرُ (3)

يعلق الجاحظ على هذا البيت فيقول : " أي كثير، ولو شاء أن يقول : والبُرُّ كالماءِ نبتُه أمِــرُ "اســتقام الشعر، ولكن كان لا يكون له معنــى، وإنما أراد أن النبات يكون على الغيث أجود "(4).

2.4 السرقات الشعرية :

لقد شاعت ظاهرة السرقات الشعرية في الأدب العربي منذ العصر الجاهلي، ثم أخذت تتكشــف وتــبدو جلــية في العصور المتعاقبة، إذ تناولها الدارسون والنقاد بشيء من التمحيص والتدقيق، وإفراد الكتب المتخصصة فيها.

وعلــى أي حال فنحن في صدد الحديث عن هذه الظاهرة كما رصدها الجاحظ لنا من خلال كُتبه وعصره أي العصر العباسي والذي يقول فيه محمد هدارة :

" إذا تركــنا العصر الأموي ووصلنا إلى العصر العباسي ذلك العصر الذي يمتاز على عصــور الأدب جمــيعا بتــنوع ثقافاته ووصول حضارته إلى القمة العالية في تاريخ الحضارة العربية – رأينا أن السرقات قد اتسعت دائرتها كثيرا بل كثيرا جدا – إلى حد لــم تــبلغه في العصور السالفة لأن السرقات ،إنما ترتبط بالأدب ارتباطا وثيقا فتتسع

1- أوس بن حجر:الديوان، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم، دار صادر ،بيروت ،1960 ،ص122.

2- الجاحظ: البيان والتبيين ج3، ص188 .

3- زهير بن أبي سلمى :شرح ديوانه ،صنعه أبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني ،دار الكتب المصيرية ،1944 ، ص315 .

4- الجاحظ: الحيوان ج3، ص476 .

وتتـــنوع كلما اتسع الأدب وتنوع، وهذا ما سنراه في العصر العباسي بصورة واسعة متمـــيزة، ومـــن الجديـــر بالقول إن ظاهرة السرقات الأدبية ظاهرة طبيعية في الفكر الإنساني، فشيوعها وتعقد أنواعها إنما يتبع ارتقاء الفكر الإنساني ولهذا أثارت السرقات في العصر العباسي حركة نقدية ضخمة يتوفر عليها النقاد بالدرس والبحث، وتؤلف فيها الكتب الكثيرة والمتنوعة " (1) .

ومن الأبيات الشعرية التي يُعابُ فيها على من يعدو على شعر غيره فيسرقه قول أبي مِسمار العكلي:

لـــلـــهِ دَرُّ عـــامـــرٍ إذا نـــطـــق   فـــي حَفـــل إمـــلاك وفـــي تلـــك الحلَـــق

ليـــس كقـــومٍ يُعرَفـــون بالسّـــرَق   مـــن خُطَـــب الناس ومما فـــي الـــوَرَق

يلفقّـــون القـــولَ تلـــفيـــق الخَلـــق   مـــن كـــلّ نَضّـــاح الذّفـــارَى بـــالعَـــرق (2)

وفي هذه الإشارة الشعرية تعريض بمن يعدو على خُطب غيره ، فيسرقها، وأن هذا السارق لابد أن يتكلف في قوله مما يُؤدي إلى انكشافه، لأنه رام شيئا ليس له .

وحـــول استخدام الأدباء والكتاب لكلمة السرقات الشعرية فقد تفاوت الأدباء والكتاب في ذلك فمنهم من قال الأخذ ،ومنهم من قال الإغارة ،ومنهم من قال السلخ والإتباع(3).

أما الجاحظ فقد راوح في التعبير عن السرقات بقوله: أخذ أو حمل أو سرق، وهذا ما سنقف عليه من خلال دراستنا .

يُـــروى عـــن أبي عمرو بن العَلاء: أنه اجتمع ثلاثة من الرُّواة فقال: لهم قائل :" أي نصف بيت شعر أحكمُ و أوجز" ؟(4).

1- هدارة: السرقات الشعرية، ص 41.

2- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص133 .

3- انظر هدارة: السرقات الشعرية، ص90 .

4- الجاحظ : البيان والتبيين ج1، ص153 .

فقال أحدهم : قول حميد بن ثور الهلالي :

أرى بَصَري قد رَابني وحَسبُكَ داءً أن تَصحَّ وتَسلما (1)

يعلق الجاحظ على هذا القول بنظرة ثاقبة فيقول:"لعلّ حُميدا أن يكون أخذه عن النَّمر بن تولب" ،فإن النمر يقول :

يود الفَتى طُولَ السَّلامةِ والغِنى فكيفَ تَرَى طُولَ السَلامةِ يَفعلُ (2)

وفي هذا القول دلالة على اطلاع واسع وحِس نقدي ثاقب ، وهذا لم يكن مَحض صدفة ،بل هو دليل ثقافة موسوعية، ومعرفة جيدة بأشعار العرب، فالجاحظ يستخدم لفظة الأخذ بمعنى السرقة، ولعل في هذا تأدبا وتلطفا من الجاحظ .

إلا أن الجاحظ وفي موضع آخر يذكر لفظة السرقة صراحة، دون أي غموض فيقول في أخذ الشعراء معاني بعضهم بعضا: " ولا يُعلم في الأرض شاعرٌ تَقَدَّم في تشبيهِ مُصيب تام، وفي معنى غريب عجيب، أو في معنى شريف كريم ،أو في بديع مُخترع، إلا وكلُّ مَن جاءَ من الشُّعراءِ من بَعدهِ، إن هو لم يعدُ على لفظه فيسرقَ لفظه أو يدعيه بأسره، فإنه لا يَدع أن يستعين بالمعنى ،ويجعلَ نفسه شريكا فيه " (3) .

ولعل الجاحظ يُشير إلى موقف عام قد يسيرُ عليه بعض من ألِفَ السرقة، ففي هذا القول إشارة لأصناف السرقات فمنها ما يكون في الألفاظ والمعاني، ومنها ما يكون في الألفاظ ،ومنها ما يكون في المعاني وحدها، وهنا نجد الجاحظ رافضا لأصحاب هذا التوجه جُملة وتفصيلا .

ولم يقف كشف الشعر المسترق عند علماء النقد فحسب، بل هاهم الخلفاء يكشفون عن ذلك أيضا فيُروى أنه لما مدح إبراهيم بن هرمة أبا جعفر المنصور، أمر له بألفي درهم ،فاستقلّها، فبلغ ذلك أبا جعفر فقال: "أما يرضى أنيَّ حقَنتُ دمه وقد استوجبَ

1- الهلالي، حُميد بن ثَور: الديوان صنعه عبد العزيز الميمني، دار الكتب القومية للنش، القاهرة، 1965، ص 7 .

2- القيسي، نوري: شعر النمر بن تولب، مطبعة المعارف، بغداد، 1968، ص87 .

3- الجاحظ: الحيوان ج3، ص312 .

إراقــته، ووفــرّت ماله وقد استحقَّ تلَفهُ، وأقررته وقد استأهل الطّرد، وقرَّبته وقد استجزى البعد ؟ ثم ذكر مجموعة من الأبيات يَذم فيها ابن هرمة بني أميةَ، فقال ابن هرمة: " فإنيٍّ قد قلت فيك أحسنَ من هذا ! فقال أبو جعفر هاته ! قال قُلت :

إذا قــيــلَ أيَّ فَتــى تــعلمــونَ أهَــشَّ إلــى الطَّعــن بالذّابـــلِ
وأضــرَبَ للقِــرنِ يومَ الوَغَــى وأطعَــمَ فــي الزَّمَــنِ الماحِــلِ
أشـــارت إليـــكَ أكــفُ الـــورَى إشـــارةَ غَرقَــى إلــى ساحِــلِ (1)

فقال المنصور:" أما هذا الشعر فمستَرقٌ ،وأما نحن فلا نكافئ إلا بالتي هي أحسن" (2).
وقال ابن الزحف : (3)

أشكـــو إليـــك وَجَعــا بركبتــــي وَهدَجَانـــا لـــم يكــن فـــي مِشيتـــي
كَهَدَجَــانِ الـــرَّالِ حَـــولَ الهَيَقـــتِ

فقال آخر، ولست أدري أيُّهما حَمَلَ على صاحبه :

أشكـــو إليـــك وَجَعــا بمرفَقِـــي وَهدَجَانـــا لـــم يكــن فـــي خُلقـــي
كَهَدَجَــانِ الـــرَّالِ حَـــولَ النَّقنـــقِ

يعلق الجاحظ على هذه القضية بالقول: " ولم يفضحه (أي الثاني) إلا قوله :

أشكو إليك وَجَعا بمرفَقي

لأن الاولَّ حكـــى أنَّ وجعه في المكان الذي يُصيبُ الشُّيوخ، ووجع المرفق مثلُ وجَعِ الأذُنِ ، وضربانِ الضّرس، ليس من أوجاع الكِبَر في شيء " (4) .
ويقول الأخطل في طلب الحيات للضفادع بالليل:

1- ابن هرمة، إبراهيم: الديوان تحقيق محمد جبار المعيبد، مطبعة الآداب، النجف، 1969، ص195.
2- الجاحظ: البيان والتبيين ج3، ص372 .
3- وهو ابن عطاء بن الخطفي ابن عم جرير الخطفي ،وقد عمّر حتى بلغ زمان محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ،انظر الجاحظ : الحيوان ج2، ص197 .
4- الجاحظ: الحيوان ج4، ص357 .

ويقول الأخطل في طلب الحيات للضفادع بالليل:

ضفادعُ فــي ظَلمــاء ليـلٍ تجاوبـَت فــدلَّ عليها صوتُها حَيَّــةَ البحــرِ (1)

يعقب الجاحظ على هذا البيت بقوله: " وقد سرَق معناه بعضُ الشُّعراء(2) ، فقال وهو يذكر الضفدع ،وأنه لا ينقَ حتى يدخل حنَكه الماء " :

يُدخِـل فــي الأشــداق مــاءً ينصُفُـه كيمــا ينِـقَ والنَّقيــقُ يُتلفــه (3)

وفي اتباع الرَّخم والسنور والعقبان للجيوش يقول النابغة :

إذا ما غــزَوا بالجيــش حلّــَقَ فوقهــم عصائــب طيــرٍ تَهتــدي بعصائــب
جوانــح قــد أيــقــنَّ أنّ قــبـيـلــة إذا ما التقى الجمعان أولُ غالبِ (4)

يقول الجاحظ: " فأخذ هذا المعنى حميد بن ثور الهلالي "(5) فقال :

إذا ما غَــدَا يَوما رأيــتَ عَيانــةً من الطَّيرِ ينْظُــرنَ الذي هو صانِــعُ (6)

وفي قول ذي الرمة :

لا أتَّقــي حَســَكَ الضَّغائــنِ بالرُّقَــى فِعــلَ الذَّليــلِ ولو بَقيــت وحيــدا
لــكــن أجــرد للضغــائــن مِثلَهــا حتَّــى تمــوت وللحُقــود حُقــودا
كالخمــرِ خَيــرُ دوائهــا منهــا بهــا تَشفــي السَّقيــمَ وتُبرِئُ المنجــودا(7)

1- الأخطل: الديوان شرح مهدي محمد ناصر الدين، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986 ، ص113 .

2- هو الذَّكواني كما يشير الجاحظ، انظر الحيوان: ج3، ص266 .

3- الجاحظ: الحيوان ج5، ص532 .

4- النابغة الذبياني: الديوان جمع وتحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ،الشركة التونسيه للتوزيع 1976 ، ص46.

5- الجاحظ: الحيوان ج7، ص21 .

6- حُميد بن ثَور الهلالي: الديوان، ص106 .

7- لم أجد هذه الأبيات في ديوان ذي الرمة، ووجدتها منسوبة ليزيد بن الطثرية انظر: الرشيد، ناصر بن سعد، شعر يزيد بن الطثرية، ط 1، دار مكة للطباعة ،1980 ،ص66.

يعقب الجاحظ على هذه الأبيات فيقول : " لقد أخذ الحِكَميُّ هذا الشعر "(1).

فقال:

وكــأس شرِبــتُ علــى لــذَّةٍ ... وأخــرَى تداويــتُ منهــا بهــا (2)

ولعل السارق في كثير من سرقاته يعمدُ إلى معاني الشعر الطويل والثقيل، فيكسوها لفظا خفيفا وجميلا، فتصبح أكثر شهرة من الأبيات الأصلية في بعض الأوقات .

وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة المسعودي(3) :

مُسَّــا تُــرابَ الأرض ،منه خُلقتُما ... وفيها المعادُ والمصــر إلى الحشــر

ولا تعــجبا أن تــُؤتَيا وتعــظَّمــا ... فما حُشِــيَ الإنسانُ شرّا من الــكبــر

فلو شئــت أدلى فيكما غير واحــد ... عــلانــيــةً أو قال ذلك في ســــرٍّ

فإن أنا لم آمــُر ولم أنــهَ عنكمــا ... ضحِكــتُ له حتى يلــجَّ فيستشــــري

يقول الجاحظ : " ومن هذا سرق كلثوم بن عمرو العتابي المعنى" (4).

حيث يقول :

إن كــنــتَ لا تــرهَــبُ ذَمِّــي لِمــا ... تَعــلمُ مــن صَفــحي عَــن الجَــاهــلِ

فأخــشَ سُكوتــي إذ أنــا مُنصِــتُ ... فــيــك لمسمُــوعِ خَــنَــا القــائــل

مــقــالــةُ السُّــوءِ إلــى أهلــهــا ... أســرعُ مــن مــنــحــدرٍ ســائــلِ

ومــَن دعــا الــنــاسَ إلــى ذمّــهِ ... ذمّــُوهُ بــالــحــقِّ وبــالبــاطــل (5)

1-الجاحظ: الحيوان ج7، ص164 .

2-الأعشى: الديوان، ص37 .

3-يذكر الجاحظ قصته في موضع آخر، انظر :البيان والتبيين ج1، ص356 .

4-الجاحظ: الرسائل ج1، ص355 .

5-يُنسب هذا الشعر لمحمد بن حازم الباهلي ،انظر، البقاعي، محمد خير،ديوان محمد بن حازم الباهلي، دار قتيبة للطباعة، دمشق، 1982، ص 81 .

3.4 الطبع والصنعة:

تحدثنا في الفصل الأول عن الآراء الانطباعية التي تصدرُ على البديهة دون تكلف وتصنع فالشعر المطبوع هو الشعر الذي يُقال على البديهة مباشرة، دون أن يحاول صاحبه إعادتهُ مرارا وتكرارا، حتى يصل به إلى القدر المطلوب من الجودة والبهاء . يُروى أن أبا دواد بن حَرِيز الإيادي قال في الخُطَبِ، وتحبير الكلام: " رأس الخَطابة الطبع ،وعَمُودُها الدُّربة ،وجناحاها رواية الكلام، وحَلْيُها الإعراب، وبهاؤُها تَخيُّر الألفاظ، والمحبَّة مقرونةٌ بقلّة الاستكراه " (1) .

وفي هذا القول إشارة لتميز الشعر المطبوع، وتفضيله، وأن تَخيُر الألفاظ لا يتنافى مع الطبع، لكن العلة تكمن في الاستكراه والتصنع الذي يؤدي إلى الحط من قدره .

ومن الإطالة يأتي التكلف، ولا خير في كثير الكلام إن أدى بصاحبه إلى التكلف والتصنع ،وفي هذا يقول عمرو بن عبيد: " لا خير في المتكلِّم إذا كان كلامه لَمن شهِدَه دونَ نفسه، وإذا طال الكلامُ عرضت للمتكلِّم أسبابُ التَّكلف، ولا خيرَ في شيءٍ يأتيك به التكلُّف "(2) .

لأن الكلام إذا قلَّ وقعَ وقوعا لا يجوز تغييره، وإذا طال الكلامُ وجدتَ في القوافي ما يكون مُجتلبا ،ومطلوبا مستكرها (3) .

وفي صورة اخرى لتفضيل المطبوع من الشعر والشعراء قول الأصمعي في الحطيئة حين قال:" الحطيئة عبدٌ لشعره " يعقب الجاحظ على هذا القول فيقول: " عاب شعر حين وجدَه كله مُتخيَّرا منتخبا مستويا، لمكان الصنَّعة والتكلُّف، والقيام عليه " (4).

فالمصنوع من الشعر مذموم و مرذول لا لأنه مصنوع وحسب بل لأنه يأتي بعد

1- الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص44 .

2- المصدر نفسه: ج1، ص115 .

3- انظر: المصدر نفسه ج1، ص288 .

4- المصدر نفسه ج1، ص206 .

طول الفكر وإجالة العقل فيه، فليس فيه ما يدل على الموهبة الشعرية التي تحِلُ على الشاعر كالإلهام .

وعلى النقيض من ذلك فهناك من فضل المصنوع من الشعر، ودعا إليه كما نجده في قول الحطيئة: " خيرٌ الشِّعر الحَوليُّ المُحكَّكُ " وقال الأصمعي: " زهير بن أبي سُلمى، والحطيئةُ وأشباههما، عبيدُ الشِّعر "(1) وفي هذا الحكم القاسي من الأصمعي الذي يتعصبُ للمطبوع من الشعر تعديا على أصحاب مدرسة الصنعة حين صورهم بالعبيد لشعرهم، فهم وان عكفوا على هذا الشعر بالتنقيح والتهذيب، فلم يكن مقصدهم من وراء ذلك إلا الوصول لأفضل ما عندهم من الشعر .

وكذلك الجاحظ يعلق على مقولة الأصمعي فيقول: " وكلُّ من جَوَّد في جميع شعره، ووقف عند كلِّ بيت قاله، وأعاد فيه النَّظَر حتى يُخرِجَ أبياتَ القصيدة كلها مستويةً في الجودة، وقد كان يُقال :"لولا أنَّ الشِّعرَ قد كان استعبَدَهم، واستفرغ مجهودَهم حتى أدخلَهم في باب التكلُّف وأصحاب الصنعة ، ومَن يلتمِسُ قَهرَ الكلام، واغتصابَ الألفاظ ،لذهبوا مذهبَ المطبوعين، الذين تأتيهم المعاني سَهوا ورَهوا، وتنثال عليهم المعاني انثيالا "(2) .

وفي أصحاب الصنعة من الشعراءيقول الجاحظ:"ومن شعراء العرب مَن كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كَريتا، وزمنا طويلا، يُردد فيها نظره، ويُجيل فيها عقله، وكانوا يُسمون ،تلك القصائد بالحوليّات، والمقلدات، والمُنقحات، والمُحكمات، ليصير قائلها فحلا خنذيذا، وشاعرا مُفلقا "(3).

وفي هذا القول يرسم الجاحظ المعالمِ الأساسية في قبول الشعر ،والفرق بين المطبوع والمصنوع من الشعر ،كما يقف الجاحظ ،عند نقطة أساسية ألا وهي أسباب تحول

1- الجاحظ: البيان والتبيين ج2، ص13 .

2- المصدر نفسه : ج2، ص13 .

3- المصدر نفسه : ج2، ص9 .

الشـــاعر إلـــى المصـــنوع مـــن الشعر، وما في المصنوع من استعباد، وقهر للكلام، واغتصاب للألفاظ.

ومن الغريب المُتكلف من الكلام، ما يُروى أن غلاما كان يقعِّر في كلامه، فأتى أبا الأسود الدّؤلي يلتمس بعضَ ما عنده، فقال له أبو الأسود: ما فعَل أبوك ؟ قال: " أخذته الحمَّى فطبخَته طبخا ،وفنَخته فنخا، وفضحته فضخا، فتركته فرخا " .

فقال أبو الأسود: " فما فعلت امرأتُه التي كانت تُهارُّه وتشارُّه، وتُجارُّه وتُزارُّه " ؟ قال: " طلَّقها فتزوَّجت غيرَه، فرضيَت وحَظيت وبظيت " .

فقـــال أبـــو الأسود: " قد عرَفنا رضيت وحظيت، فما بظيت " ؟ قال : " حرف من الغريب لم يبلغك "فقال أبو الأسود :"يا بُني كلُّ كلمةٍ لا يعرفها عمُّك فاستُرها كما تستر السّنورُ جعرها "(1)

ففي نقد أبي الأسود الدؤلي دلالة على عدم قبول التكلف من أجل التفرد بالقول، أو حبا في الشهرة واستعراض القوة في البيان والكلام، ويُروى أن سيدنا محمد عليه السلام قـــال لمـــن تكلف كلاما جميلا ،لإبطال الحق، وإحقاق الباطل، فقال له:" أسجع كسجع الكهان "(2) .

فهـــل كان التكلف مذموما في البيان والبلاغة وحسب ؟ يقول الجاحظ : " ولم أرَهُم يذمُّون المتكلِّف للبلاغة فقط ، بل كذلك يَرَون المتطرِّف والمتكلِّف للغِناء، ولا يكادون يضَعون اسم المتكلّف إلا في المواضع التي يذمُّونها " (3) .

ومن ذلك قول قيس بن الخطيم :

فما المالُ والأخـــلاق إلا مُعـــارةٌ   فما استطَعتَ من معروفِهـــا فتَـــزوَّدِ

1- الجاحظ: البيان والتبيين: ج1، ص379 .

2- صحيح مسلم ،كتاب القسامة ، باب دية الجنينين ووجوب الدية في قتل الخطأ ، بشرح الإمام النوويّ، ج10 الناشر مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، ص 178

3- الجاحظ: البيان والتبيين ج2، ص18 .

وإنّي لأَغنَى النـــّاسِ عن متكلفٍ   يرى الناسَ ضُلالاً وليس بمهتدي (1)

ومن التعقيد والتقعير والتكلف، قول أبي علقمة النحوي لطبيبه: " يا آس ،إني رجعت إلى المنزل وأنا سنِقٌ لَقِسٌ، فأُتيت بشنشنةٍ من لِوَيةٍ ولكيك، وقِطَعِ أَقرنَ، قد غَدَرنَ هناك من سَمن، ورُقَاقٍ شرشِصان، وسَقِيط عُطعُط، ثم تناولت عليها كأسا، قال الطبيب: " خُذ خَرفَقا وَسَفَلقاً وجَرفَقَضا" فقال : " ويلَكَ أيُّ شيء هذا "؟ قال:" وأي شيء ما قلت" ؟(2). وهــذا الــتكلف المذموم الذي يؤدي إلى الغموض، واستحالة الفهم، إلا بالتكلف وطول التمعن والتدبر ، لذلك رفض عامة الناس التكلف وذموه .

وفــي نهايــة المطاف يقف الجاحظ موقف المرجح والمقارن بين المطبوع والمصنوع فيقول: "وقد علمنا أنّ مَن يَقرِض الشعر، ويتكلفَ إقامةَ الوزن، والذي تجود به الطبيعةُ وتعطــيه النفس سَهوا رهوا ،مع قلة لفظِه وعدد هجائه، أحمدُ أمرا ،وأحسن موقعا من القلوب، وأنفعُ للمستمعين، من كثيرٍ خرج بالكَدِّ والعلاج ولأنّ التقدُّم فيه، وجمعَ النفس له، وحَصرَ الفكر عليه لا يكون إلا ممن يُحبُّ السُّمعة ويهوَى النَّفج و الإستطالة " (3) .

4.4 قضية الصدق والكذب:

تناولـــت هـــذه الدراسة قضية شغلت النقاد والشعراء العرب منذ زمن بعيد، وهي قضــية الصــدق والكذب ،فتراوحت أفكارهم بين المؤيد والمعارض والمضطرب بين التأييد والمعارضة، ولعل سبب ذلك هو جدلية هذه القضية، واختلاف النظرة إليها من شخص لآخر .

فالرســول علــيه الصلاة والسلام وبالرغم من موقف الإسلام من الشعر الشعراء، وتــنزهه علــيه السلام عن قول الشعر، إلا أنه كانت له وقفات نقدية يذكر فيها صدق الشاعر أم كذب .

1- ابن الخطيم، قيس: الديوان تحقيق ناصر الدين الأسد ،ط 2 ،دار صادر ،بيروت ،1967، ص 129، 130.

2- الجاحظ: البيان والتبيين ج2، ص270 .

3- المصدر نفسه : ج4، ص29 .

فقد رُوي أنه عليه السلام أُنشِدَ قول أمية بن أبي الصلت :

رَجُـلٌ وثـورٌ تحـتَ رِجـلِ يَمينـهِ والنَّـسرُ للأُخـرَى وليـثٌ مُرصـدُ (1)

فقال عليه السلام: " صدق "

أي أنه صدق في وصف حَملة العرش من الملائكة، وهو يعني في صورة نسر ،لأن المَلك لا يُقال له نَسرٌ ولا صقرٌ " (2) .

وقال أبو الحسن: " أجرى رسول اللهﷺ، الخيلَ وسَبَّقَ بينها، فجاء فرسٌ له أدهمُ سابقا، فجثا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه " وقال : " ما هو إلا بحرٌ " ، فقال عمر بن الخطاب :" كذب الحطيئةُ " (3) حيث يقول :

وإنَّ جيادَ الخيـلِ لا تستفزُّنـا ولا جاعلاتُ العـاجِ فـوقَ المعاصِـم(4)

وفي موضع آخر نجد عمر بن الخطاب يقف موقف الناقد، الذي يتخذ من الصدق مقياسا للشعر ، حين سمع قول الحطيئة :

متـى تأتِـهِ تعشُـو إلى ضـوءِ نـارِه تجـد خيرَ نـارٍ عنـدها خَيـرُ مُـوقِـدِ (5)

فقال عمر:" ذاك رسول الله ﷺ" (6) .

ولعـل كثيرا من هذه الأحكام يصدر من مُنطلق ديني، فالصدق ما طابق الواقع، والكذب ما خالف الواقع .

1- ابن الصلت، أمية: الديوان جمع وتحقيق عبد الحفيظ السطلي، ط 2، المطبعة التعاونية، دمشق، 77 ص 365 .

2- الجاحظ: الحيوان ج7، ص46 .

3- الجاحظ: البيان والتبيين ج2، ص29 .

4- لحطيئة: الديوان، ص396 .

5- الحطيئة: الديوان، ص 161.

6- الجاحظ: البيان والتبيين ج2، ص29 .

وفي هذا الصدد يقول جهاد المجالي: " إن من النقاد من ينظر إلى الصدق من خلال واقعية التجربة في حياة الشاعر وكأنهم لا يقتنعون بما يسمى بالصدق الفني، أو في قدرة الشاعر في ملاحظة تجارب الآخرين والتفاعل معها إلى الحد الذي تدب حميّاها في نفسه لتصبح همه وأرقه الذي يُقضُّ مضجعه ،فيعبر عنها بصدق من يعانيها ويكتوي بنارها، وهم أيضا لا يقرون، كما يبدو، بالدور الفاعل لمخيلة الشاعر وقدرته على تقمص التجربة والتفاعل معها بقوة جياله، ودقة مسلكه، وسَعة حيلته فيصورها لنا تصويرا نكاد نراه بأعيننا ونلمسه بجناننا " (1)

ومما يُروى أن عبيد الله بن الأهتم، قال لزياد عندما انتهاء من خطبته البتراء :" أشهد أيُها الأمير، لقد أُوتيتَ الحكمةَ وفَصل الخطاب"، فقال له : " كذبتَ، ذلك نبيٌّ الله داود صلى الله عليه وسلم " فقام الأحنفُ بن قيس فقال: " أيُّها الأمير ،إنما المرء بجدِّه ، والجوادُ بشَدِّه ،وقد بلَّغَك جَدُّك أيها الأميرُ ما ترى، وإنما الثناء بعد البلاء، والحمدُ بعد العَطاء، وإنا لن نُثنِيَ حتى تبتلى " فقال زياد: " صدقت " (2) .

ففي هذا الموقف دليل على الاهتمام بقضيتي الصدق والكذب، حتى وإن كان الأمر في المدح والثناء وهذا ما لم يكن عند الجميع، لكن نقاد العرب يرون أن الكذب المباح يكون في ضربين هما :

وصف الممدوح أو المهجو بما ليس فيه من صفات، وثانيهما ألوان الخيال المختلفة التي يستخدمها الشاعر، ليجعل شعره أكثر وضوحا وتأثيرا، وهنا يعرض لنا مقولتان مأثورتان هما قولهم: "أعذب الشعر أكذبه "، وقولهم: "خير الشعر أصدقه " (3).

1- المجالي، جهاد: دراسات في الإبداع الفني في الشعر رؤى النقاد العرب في ضوء علم النفس الأدبي والنقد الحديث، ط 1، دار يافا العلمية، عمان، 2008، ص141 .

2- الجاحظ: البيان والتبيين ج2، ص65 .

3- بدوي: أسس النقد الأدبي عند العرب ص 428 .

أمـــا الإباحـــة في الكذب فهي ليست مُطلقة، فمن العرب من رفض الكذب جملة وتفصيلا ورأى أن الصـــدق هو الطريق الصحيح لجودة الشعر، ومن هذه الطائفة الجَرنفَشُ(1) فإنه قال: للفرزدق لما خلع لجامَ بغلته، وأدنى رأسَها من الماء، قال له جَرَنفش : " نحِّ بغلتَك ، حلَقَ الله ساقَيك " ! قال : " ولِمَ عافاك الله " ؟ قال: " لأنك كذوب الحنجرة، زاني الكَمَرة" ! (2)

وممـــا يُـــروى أن شاعرا قال في احد الخلفاء قصيدة، فأمر الخليفة له بأعطية، ففرح الشـــاعر، فـــأخذ الخلـــيفة يأمـــر كاتبه بمضاعفة الأُعطية كلما رأى منه الفرح، فقال له الشـــاعر: " إنـــك كريم وأنت تضاعِف لي الجائزة كلما رأيتني أزداد فرحا، وقبول هذا لا يكون إلا من قلة الشكر مني فدعا له وخرج " فقال الكاتب: " سبحان الله ! هذا كان يرضى مـــنك بأربعيـــن درهمـــا، تأمرُ له بأربعين ألف درهم " ؟ فقال الخليفة: " ويلك! وتريد أن تعطـــيَه شيئا"؟ قال: "ومن إنفاذ أمرك بدّ " ؟ قال: " يا أحمق، إنما هذا رجلٌ سرَّنا بكلام، وســـررناه بكلام، وهو حين زعمَ أنني أحسنُ من القمر وأشدّ من الأسد، وأن لساني أقطعُ مـــن الســـيف، وأن أمري أنفذُ من السِّنان جعلَ في يدي من هذا شيئا أرجعُ به إلى بيتي ؟ ألســـنا نعلمُ أنه قد كذبَ، ولكنه قد سرَّنا حين كذبَ لنا، فنحن أيضا نسرُّه بالقَول ونأمر له بالجوائز، وإن كان كذبا، فيكون كذبٌ بكذب، وقول بقول، فأمّا أن يكون كذبٌ بصدق وقول بفعل، فهذا هو الخسران المبين " (3) .

وفـــي مقولـــة " أعذب الشعر أكذبه " يقول حُباب بن جبلة الدقاق: عندما قُيل له إنك لتكذب في الحديث، فقال: "وما عليك إذا كان الذي أزيدُ فيه أحسنَ منه، فو الله ما ينفعُك صدقُه ولا يضرُّك كذبُه، وما يدور الأمرُ إلا على لفظٍ جيِّد ومعنى حسن، ولكنَّك والله لو أردتَ ذلك لتلحلج لسانُك، ويذهَب كلامك " (4) .

1- الحرنفش: أصل معناه عظيم الجسم من الرجال ،والحرنفش هذا من بني سدوس انظر الجاحظ: الرسائل ج2، ص274.

2- الجاحظ: البيان والتبيين ج2، ص230 .

3- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر :البخلاء، تحقيق طه الحاجري، ط8 دار المعارف، القاهرة، 1997 ص 26 .

4- الجاحظ: البيان والتبيين، ج2، ص339 .

وفي هذا القول دليل أن كثيرا من الناس قد احترف الكذب، ووجده سبيلا لتزيين الكلام، واضافة رونق خاص عليه، يُسهم في جماله وبهائه .

وفـــي مذهب متوسط بين الكذب والصدق ،نجد قول الجهجاه(1) في تحسين الكذب في مواضع ، وفي تقبيح الصدق في مواضع، وفي إلحاق الكذب بمرتبة الصدق ،وفي حطّ الصـــدق إلى موضع الكذب، وأن الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه وتذكر مثالبه ، ويُحابون الصدق بتذكر مناقبه، وبتناسي مضاره، وأنهم لو وازنوا بين مرافقهما وعدّلوا بين خصالهما، لما فرّقوا بينهما هذا التفريق ولما رأوهما بهذه العيون "(2) .

ويقول جعفر بن يحيى عندما تحدث عن الأصمعي: " أين يقعُ مَديح اللسان من مَديح آثار الغنى على الإنسان، فاللسانُ قد يكذِب، والحالُ لا تكذب، لله درُّ نصيب حيث يقول:

فعاجـــوا فأثنـــوا بالـــذي أنـــت أهلـــه ولو سكتـــوا أثنـــت عليـــك الحقائـــب (3)

وفـــي مـــن جعل الكذب منهجا له قول العتبي(4): " أنا أصدق في صغار ما يضرُّني، لأكذبَ في كبار ما ينفعني " وقال أيضا: " أنا لا أصدق ما دام كذبي يخفى " (5) .

وفي مقطوعة شعرية يتحدث فيها أبو البلاد الطَّهَوي عن الغول فيقول :

لَقِيـــتُ الغـــول تســـري فـــي الظـــلام بسهـــب كالـــعبابـــة صَـــحصَـــانِ
فقلـــتُ لهـــا كـــلانـــا نِـــقـــض أرض أخـــو سفـــرٍ فصُـــدِّي عن مكانـــي
فـــقالـــت زد فـــقلـــتُ رُويـــدَ إنِّـــي علـــى أمـــثالهـــا ثـــبتُ الـــجَنـــان

يعلـــق الجـــاحظ علـــى هذه الأبيات بالقول: " كان أبو البلاد الطهوي هذا من شياطين الأعراب وهو كما ترى يكذب وهو يَعلم، ويُطيل الكذب ويُحبِّرُه"(6).

1- الجهجاه: الأمر في تعريفه غامض ويقال أنه ممن ينتصرون للكذب انظر: البخلاء، ص258.

2- الجاحظ: البخلاء، ص4.

3- سلوم، داود: شعر نصيب بن رباح، مطبعة الإرشاد، 1967 ، ص48 .

4- يُقال الضبيّ، انظر :الحيوان ج4، ص219 .

5- الجاحظ: الحيوان ج5، ص591 .

6- المصدر نفسه: ج6، ص235 .

الخاتمة:

تُبين هذه الدراسة أن النقد الأدبي، قد قطع شوطا مهما في مسيرته التاريخية، في القرن الثاني والثالث الهجريين، على يد أبي عثمان عمرو بن بحر، الذي تناول كثيرا من القضايا الـــنقدية، حيث بنى لنا مخططاً يُصور مسيرة النقد الأدبي منذّ العصر الجاهلي إلى القرن الثالـــث الهجري، وذلك من خلال رصده لآراء ،كوكبة من النقاد والأدباء والشعراء الذين كان لهم الدور الأكبر في ترسيخ مبادئ هذا النقد الأدبي.

فالجـــاحظ المعـــروف بفكـــره الاعتزالي ،لم يكن عالما وأديبا، فحسب بل كان ناقدا ومفكـــرا، وراويـــة، يُعمِـــل عقلـــه في كل ما ينقل، إذ تحدث عن كثير من الآراء النقدية وأضاف إليها رأيه النقدي، كاشفا بذلك عن شخصية نقدية فذّة .

ونحـــن ومن خلال هذه الدراسة حاولنا أن نُلقي الضوء على جانب من جوانب النقد الأدبـــي عـــند الجـــاحظ من خلال الكشف عن مسيرة النقد الأدبي المتجدد، وبيان الأسس والنظريات النقدية التي صار عليها نقادنا القدماء في نقدهم.

ومـــن أبـــرز ما ساعد الجاحظ في الإفادة من هذا التراث الأدبي، وتوظيفه في أدبه، سعة اطلاعه ومعرفته الجيدة، بالثقافة العربية والثقافات الأخرى، وهذا ما بدا واضحا في كـــتاباته التـــي تصور مسيرة النقد الأدبي في عصوره المتعاقبة ،مما ساهم في إثراء النقد الأدبي.

ومن خلال تتبعنا لهذه الآراء التي أوردها الجاحظ في تضاعيف مؤلفاته، لا يسعنا إلا القول إن هذا جانبا جديدا يُظهر جهدا عظيما، يقدمه الجاحظ للنقد الأدبي من جديد.

ولعل أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث متمثلة فيما يلي:

1- ارتـــباط الـــنقد الأدبـــي بالموهـــبة والـــذوق الفنـــي، إذ إن الـــنقد الأدبي بدأ بالآراء الانطباعـــية القائمـــة علـــى الذوق والموهبة ،ثم أخذت هذه الآراء بالتطور إلى أن أصبحت علما قائما بذاته .

2- رصد الجاحظ لعملية التطور النقدي الذي شهده النقد الأدبي في عصوره المتعاقبة.

3- تدوين الجاحظ لآراء طائفة من النقاد العرب القدماء من خلال رصد أقوالهم وتعليقاتهم النقدية .

4- اعتــبار النقد الأدبي علما متجددا ،لم يأت فجأة ، بل مرّ بمراحل متعددة حتى أصبح ناضجا بهذا الشكل الذي شاهدناه ،نتيجة لجهد هؤلاء العلماء الذين شقوا الطريق لهذا الفن الأدبي .

5- نشــأت الآراء الانطباعــية على أساس الموهبة، ولم تخضع لقواعد نقدية،لذلك كانت عامة، وغير معللة، إلا أن أشخاصا تميزوا في هذا المضمار فذاع صيتهم.

6- وجــود إرهاصـــات تُشير إلى اهتمام النقاد العرب منذ زمن بعيد بالحالة النفسية لدى المــبدع لا سيما صحيفة بشر بن المعتمر التي حشدت كما هائلا من الآراء النفسية المهمة، وإن لم تُشير لها صراحة.

7- عناية الجاحظ بالآراء النقدية القديمة، التي كان لها الأثر الأكبر في ترسيخ مبادئ هذا العلم.

8- تركيز الجاحظ على الجانب النفسي لدى المبدع من خلال حديثه عن شياطين الشعراء.

9- أثر بشر بن المعتمر في النقد الأدبي من خلال صحيفته المشهورة، والتي غدت نبراسا يهتدي به كثير من الدارسين.

10- تعــريف الجــاحظ لفــن البلاغة، معتمدا في ذلك على سعة اطلاعه على الثقافات الأخرى، ومعرفته الجيدة بفنون العربية.

11- اهــتمام الجــاحظ بقضيتي اللفظ والمعنى على حدّ سواء، إذ يُعد من أوائل من أثار الحديث في هذه القضية.

12- - بُــروز شخصــية الجاحظ النقدية، من خلال الكم الهائل الذي حشده من الشواهد والآراء النقدية.

13- اهــتمام الجــاحظ بالشواهد الشعرية، وذلك من خلال رصده لكثير منها في مواطن عديدة من كتبه.

14- وقوف الجاحظ على كثير من القضايا النقدية مثل اللفظ والمعنى، والسرقات الشعرية، والطبع والصنعة، و الصدق والكذب.

المراجع

القرآن الكريم .

ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني(هـ 852/ 1448م)، (1995م): لسان الميزان، تحقيق محمد المرعشلي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني(هـ 852/1448م)، (1996م): تهذيب التهذيب، ط1،باعتناء إبراهيم الزيق وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت .

ابن حجر، شهاب الدين ابو الفضل أحمد بن علي العسقلاني(هـ 852/1448م)، (2004م): الإصابة في تمييز الصحابة، اعتنى به حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، بيروت .

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (هـ395/1004م)، (1952م): كتاب الصناعتين، تحقيق علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل،ط 1 ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة .

ابن أبي سلمى، زهير، (1944م): الديوان، شرح أبي العباس احمد بن يحيى الشيباني ثعلب، المكتبة العربية، دار الكتب المصرية، القاهرة .

ابن الأبرص، عبيد(1964م): الديوان، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت .

ابن الجوزي، الإمام جمال الدين أبي الفرج،(597هـ/1200م) ،(1979م): صفوة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري، ط2، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت .

ابن الخطيم، قيس،(1967م): الديوان تحقيق ناصر الدين الأسد، ط 2، دار صادر، بيروت .

ابن الصلت، أمية(1977): الديوان جمع وتحقيق عبد الحفيظ السطلي، ط 2، المطبعة التعاونية، دمشق .

ابن العبد، طرفة، (1975م): الديوان، شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق دريد الخطيب ولطفي الصقال، مجمع اللغة العربية، دمشق .

ابن النديم، أبو الفرج محمد بن يعقوب اسحاق(380هـ/ 990م)، (1971م): كتاب الفهرست، تحقيق رضا تجدّد، طهران .

ابن برد، بشار، (1976م): الديوان، شرح:الشيخ محمد الطاهر أبن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، الجزائر، ج4 .

ابن ثابت، حسان، (1981م): شرح الديوان ،ضبط عبد الرحمن البرقوقي ،دار الكتاب العربي، بيروت.

ابن حجر، أوس، (1979م): الديوان، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ط2 .

ابن حلزة، الحارث،وابن كلثوم عمرو، (1998م): ديوانهما، شرح مجيد طراد، ط1، دار الجيل، بيروت .

ابن طباطبا، محمد بن أحمد العلوي(هـ933/322م)، (1956م): عيار الشعر، تحقيق طه الحاجري، ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة .

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (276هـ / 889م)، (1964م): الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الثقافة، بيروت .

ابن معصوم، علي صدر الدين المدني(1120هـ/ 1708م)، (1969م): أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق :شاكر هادي، ط1، مطبعة النعمان، بغداد .

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت711هـ/1311م)،(1990م): لسان العرب، دار الفكر، بيروت .

ابن هرمة، إبراهيم، (1969م): الديوان تحقيق محمد جبار المعيبد، مطبعة الآداب، النجف .

أبو الرضا، سعد، (1981م): الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي اصوله وقضاياه، مكتبة المعارف، ط1، الرياض .

أبو النجم، الفضل بن قدامة العجيلي، (1998م): الديوان ،تحقيق: سجيع جبيلي ،دار صادر، ط 1، بيروت.

الأخطل، غياث بن غوث، (1986م):الديوان شرح مهدي محمد ناصر الدين ،ط 1 ،دار الكتب العلمية، بيروت .
إسماعيل، عز الدين، (1963م): التفسير النفسي للأدب، دار المعارف، القاهرة .
الأصفهاني، أبو الفرج (356هـ/966م)، (1994م): الأغاني، ط1، ج13، دار إحياء التراث العربي، بيروت .
الأعشى، ميمون بن قيس، (2005م): الديوان شرح يوسف شكري فرحان، دار الجيل، بيروت .
امرؤ القيس، (2000م): الديوان، شرح أبو سعيد السكري، تحقيق: أنور أبو سويلم، ومحمد الشوابكة، ط 1، مجلد2، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين .
الأنصاري، الأحوص، (1990م): الديوان: جمع وتحقيق:عادل سليمان، وتقديم شوقي ضيف، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2 .
أنيس، إبراهيم، (1965م): موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، القاهرة .
الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب(403هـ/1012م)، (1897م): إعجاز القرآن، ط1، مطبعة الإسلام، مصر .
الباهلي، محمد بن حازم، (1982م): الديوان، صنع محمد خير البقاعي، دار قتيبة للطباعة ،دمشق .
البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (256هـ/869م)، (1998م): صحيح البخاري، كتاب الطب باب الشرك والسحر من الموبقات، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض.
بدوي، أحمد، (1979م): أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة .
بكار، يوسف، (1983م) شعر زياد الأعجم، ط 1، دار المسيرة، بيروت .
بناني، محمد الصغير، (1983م): النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر .

بولعراوي، مختار،(1989م): مفهوم اللفظ والمعنى في التراث النقدي العربي حتى القرن السابع الهجري:رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة حلب .
الجابري ،محمد عابد، (1985م): بنية العقل العربي ،دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ،ط 1،الجزائر .
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (255هـ/868م)، (1948م): البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ط 2، دار الفكر، بيروت .
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (255هـ/868م)، (1965م): الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ط2، دار الجيل، بيروت .
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (255هـ/868م)، (1991م): رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون ،ط 1 ، دار الجيل، بيروت .
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (255هـ/868م)، (1997م): البخلاء، تحقيق طه الحاجري، ط8 دار المعارف، القاهرة .
الجبوري، يحيى، (1971م): شعر عبدة بن الطيب، دار التربية، بغداد .
الجبوري، يحيى، (1967م): شعر عمر بن لجأ، التيمي، دار الحرية للطباعة، بغداد .
الجبوري، يحيى، (1976م): شعر هدبة بن خشرم العذري، ط 1، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، بغداد .
الجرجاني، أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي، (392هـ/1001م)، (1945م): الوساطة بين المتنبي وخصومه، ط3 ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، طبعة عيس البابي الحلبي، القاهرة .
جرير، ابن عطية، (2005م): الديوان، شرح يوسف عيد، ط1، دار الجيل، بيروت.
الحسحاس، سحيم عبد بني، (1950م): الديوان، تحقيق عبدالعزيز الميمنى، ط1 ، دار الكتب المصرية، القاهرة .

الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني (453هـ/ 1061م)، (2001م): زهر الآداب وثمرة الألباب، تحقيق صلاح الدين الهواري، ط3، المكتبة العصرية، بيروت .

الحطيئة، جرول بن أوس، (1958م): الديوان، شرح ابن السكيت، والسكري، والسجستاني، تحقيق نعمان أمين طه، ط1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر .

الحمصي، نعيم، (1949م): البلاغة بين اللفظ والمعنى "من عصر الجاحظ إلى عصر ابن خلدون" مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد الرابع والعشرون، الجزء الأول، ص443 ، 449 .

الحموي، ياقوت، (626هـ/ 1229م)، (1999م): معجم الأدباء، تحقيق وضبط :عمر فاروق الطباع، ط1، المجلد 4، ص186 مؤسسة المعارف، بيروت.

حميدة، عبد الرزاق، (1956م): شياطين الشعراء دراسة تاريخية نقدية مقارنة، تستعين بعلم النفس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة .

خلف الله، محمد، (1970م): من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده ،معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ط2 .

الدروبي، محمد، (1994م): آثار الجاحظ دراسة توثيقية، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية .

الرشيد، ناصر، (1980م): شعر يزيد بن الطثرية، الرشيد، ط 1، دار مكة للطباعة، الرياض .

سلامة، إبراهيم، (1952م): بلاغة أرسطو بين العرب واليونان،ط 2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة .

سلوم، داود، (1986م): النقد المنهجي عند الجاحظ، ط 2، عالم الكتب، بغداد .

سلوم، داود، (1967م): شعر نُصيب بن رباح، مطبعة الإرشاد، بغداد .

السندوبي، حسن، (1931م): أدب الجاحظ ، ط1، المطبعة الرحمانية، القاهرة .

سويف، مصطفى، (1969م): الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، دار المعارف، ط4، القاهرة .

السيِّد، عز الدين علي، (1978م) : التكرير بين المثير والتأثير، ط2، دار الطباعة المحمدية، القاهرة .

الشايب، أحمد، (1960م): أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة السعادة، ط6 .

صريع الغواني مسلم بن الوليد، (1958م) شرح الديوان، تحقيق سامي الدهان، دار المعارف، القاهرة .

ضيف، أحمد، (1921م): مقدمة لدراسة بلاغة العرب، ط1، مطبعة السفور، القاهرة .

ضيف، شوقي، (1965م): البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر.

طبانه، بدوي، (1965م): دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية حتى نهاية القرن الثالث، ط4، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة .

طبانه، بدوي، (1968م): البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، ط4، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة .

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد الشامي(360هـ/ 970م)، (1994م): المعجم الكبير،تحقيق حمدي عبد المجيد، ط2، دار الصميعي، الرياض .

الطرماح، ابن حكيم بن حكم، (1968م): الديوان، تحقيق عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق .

طيفور، أبو الفضل أبي طاهر طيفور الخراساني (280هـ/893م)، (1998م): بلاغات النساء، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الفضيلة، القاهرة .

عبد القادر، حامد، (1949م): دراسات في علم النفس الأدبي، المطبعة النموذجية، القاهرة .

العبسي، عنترة بن شداد، (1983م): الديوان تحقيق محمد سعيد مولوي، ط 2، المكتب الإسلامي، بيروت .

العجاج، عبد الله بن رؤبة، (1971م): الديوان، تحقيق: عزة حسن، مكتبة دار الشروق، بيروت .

عزة، كثير، (1971م): الديوان، شرح أحسان عباس، دار الثقافة، بيروت .

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (هـ395/1004م)، (1952م): كتاب الصناعتين، تحقيق:علي البجاوي ،ومحمد أبو الفضل ،ط 1 ، دار إحياء الكتب العربية .

العلي، عدنان، (2000م): صحيفة بشر بن المعتمر وأثرها في النقد العربي القديم، منشورات جامعة آل البيت .

علي، محمد كرد(تصنيف)، (1946م): رسائل البلغاء، ط3، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة .

الفحل، علقمة، (1969م): الديوان، شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق لطفي الصقال، درية الخطيب، و راجعه، فخر الدين قباوة، ط 1، دار الكتاب العربي، حلب .

فيدوح، عبد القادر، (1998م): الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، ط1، دار صفاء للنشر، عمان.

القطامي، التغلبي، (1960م): الديوان، تحقيق إبراهيم السامرآئي، وأحمد مطلوب، ط 1، دار الثقافة، بيروت .

القيرواني، أبوعلي الحسن بن رشيق(هـ456/1063م)، (1988م): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت .

القيسي، نوري حمودي، (1968م): شعر النمر بن تولب :،مطبعة المعارف، بغداد .

المجالي، جهاد، (2008م): دراسات في الإبداع الفني في الشعر رؤى النقاد العرب في ضوء علم النفس الأدبي والنقد الحديث، ط 1، دار يافا العلمية، عمان .

المجالي، جهاد، (1993م): موقف النقاد العرب القدامى من قضية الذوق الفني، مؤتة للبحوث والدراسات، سلسلة أ: العلوم الإنسانية و الاجتماعية، المجلد الثامن، العدد الثاني، ص178 .

مردم، خليل، (1930م): أئمة الأدب الجاحظ، مكتبة عرفة، دمشق .
المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، (346هـ/ 957م)، (1938م): التنبيه والأشراف، تصحيح: عبدالله الصاوي، المكتبة التاريخية، القاهرة .
المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي(346هـ/957م)، (1991م): مروج الذهب ومعادن الجواهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، الجزء4.
مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (261هـ/ 874م)، (1989م): الصحيح، كتاب القسامة، باب دية الجنيين ووجوب الدية في قتل الخطأ، بشرح الإمام النووي، الناشر مؤسسة مناهل العرفان، بيروت .
مطلوب، أحمد، (1973م): مناهج بلاغية، وكالة المطبوعات، الكويت .
الملائكة، نازك، (1978م): قضايا من الشعر المعاصر، دار العلم، بيروت، ط5 .
النابغة الذبياني، (1976م): الديوان، جمع وتحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسيه للتوزيع، الجزائر .
ناجي، مجيد عبد الحميد، (1976م): الأثر الإغريقي في البلاغة العربية من الجاحظ إلى ابن المعتز، مطبعة الآداب، بغداد.
الناقوري، إدريس، (1982م): المصطلح النقدي في نقد الشعر، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، الجزائر .
النميري، الراعي، (1980م): الديوان ،جمعه وحققه راينهرت قايثرت، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت .
نوفل، سيد، (1948م): البلاغة العربية في دور نشأتها، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة .
هدارة، محمد، (1981م): مشكلة السرقات في النقد العربي دراسة تحليلية مقارنة، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 2 .
هلال، محمد غنيمي، (1977م): النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر، القاهرة .

الهلالي، حُميد بن ثَور، (1965م): الديوان صنعه عبد العزيز الميمني، دار الكتب القومية للنشر، القاهرة .

الهليل، عبدالرحمن، (1999م): التكرار في شعر الخنساء، دراسة فنية، دار المؤيد، الرياض، ط1.

الهمذاني،أبو الفضل بديع الزمان، (1965م): المقامات، شرح محمد عبدة، ط5، المطبعة الكاثوليكية، القاهرة .

هيثم، محمد، (1993م): البلاغة عند المعتزلة، رسالة دكتوراة إشراف، جامعة دمشق، كلية الآداب .